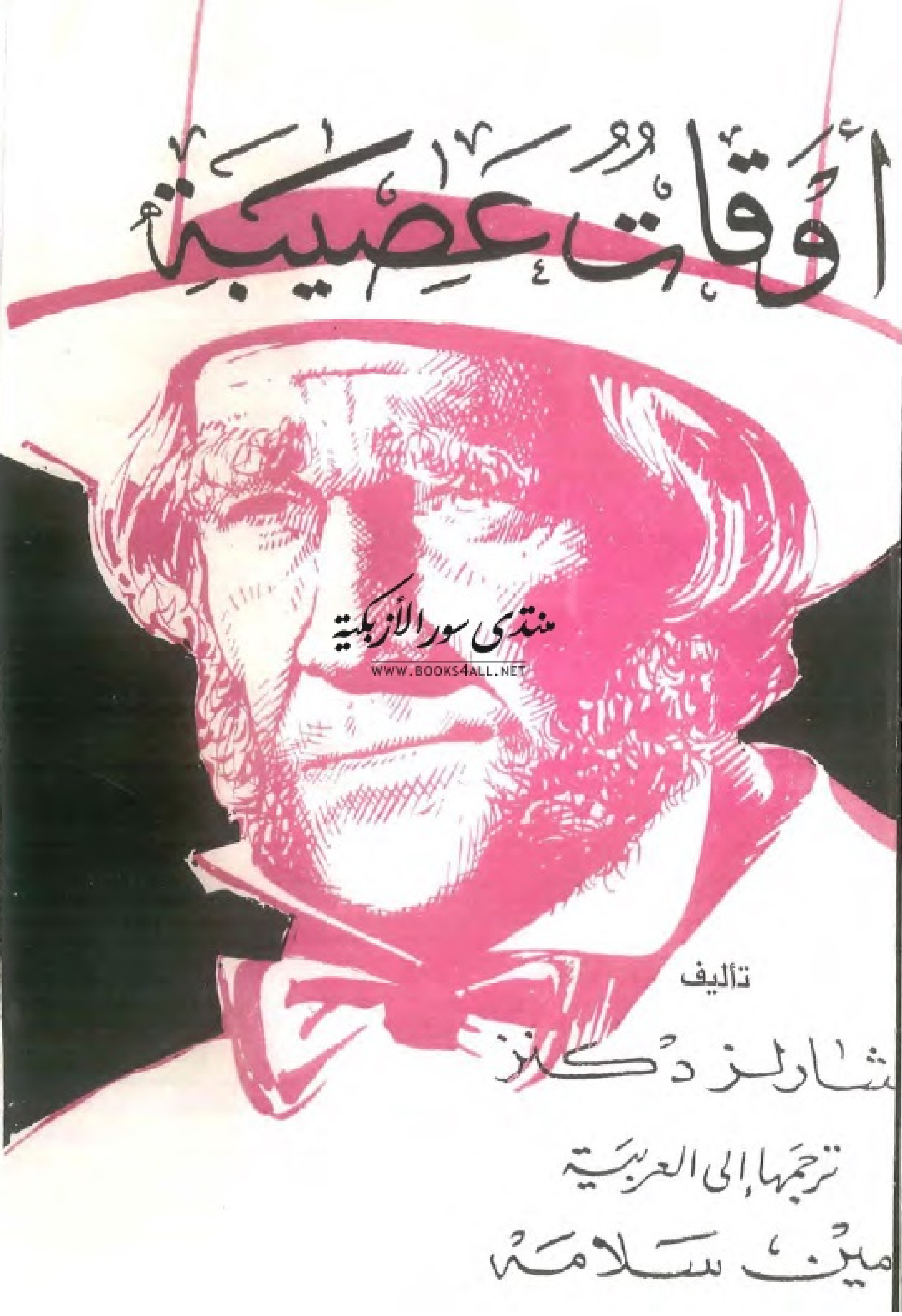

أوقات عصيبة
تأليف
شارلز دكنز
ترجمها الى العربية
مين سلامة



منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

أوقات عصيبة

تأليف
تشارلز دكنز

اختصرتها وبسطتها
ڤيولا هجنز

ترجمها إلى العربية
أمين سلامة

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

HARD TIMES

By
CHARLES DICKENS

Abridged and simplified
By
VIOLA HUGGINS

Translated into Arabic
by
Amin Salama

1993

كلمـة المترجم

بكل فخر يسعدنى أن يكون لى شرف ترجمة هـــذا العمل الجليل القيم الذى كتبه فى يوم من الأيام تشـارلز دكنز ، ذلك الروائى الانجليزى الذى ولد عام ١٨١٢م ومات عام ١٨٧٠م ، والذى ذاع صيته حتى أصبح واحدا من أشهر كتاب الرواية فى انجلترا ٠

وحسب معلوماتى فان تشارلز دكنز لم تبدأ شـــهرته الأدبية الا بعد أن نشر انطباعاته عن لنـــدن فى كثير من المجلات الدورية ٠ ولقد بدأ فى تأليف رواياته الطويلة عام ١٨٣٨ الذى كتب فيها روايته المشهورة « أوليفر تويست » ثم أعقبها بقصـــص « دافيد كوبرفيلد » والتى كتبها عام ١٨٥٠ وتلى ذلك كتابته لرواية «أوراق بكويك» التى كتبها فى الفترة بين ١٨٣٦ ، ١٨٣٧ ٠ ولعل أروع ما جاد به قلم هذا الروائى الممتاز روايته المشهورة « قصة مدينتين » وتدور كلها حول الثورة الفرنسية ٠ وان كنت أفتخر بأننى قرأت كل هذه الروايات بالانجليزية الا أنه يســعدنى أن أفيـد القارىء بأن المكتبة العربية تزخر بترجمات رائعة بالعربية لهذه الأعمال الفائقة الجودة والشهرة ٠

وكما كتب تشارلز دكنز الرواية الطـــويلة وحاز فيها

قصب السبق الا أنه تعرض للقصة القصيرة وعالجها بكفاءة نـــادرة ...

وأول ما تتميز به روايات دكنز وقصصه ثراؤها الواسع بالوصف الدقيق للشـخصيات وبعرضــها الثرى للحيـاة الاجتماعية فى مختلف صورها ،وبما فيها من نزعة عاطفية ، وانتقاد للشرور الاجتماعية ، مثل السجن من أجل الديون ، ومماطلات القضاء ، وسوء التعليم .

ومن الجدير بالذكر أن كتابات دكنز عجلت بالاصلاح فى ميادين كثيرة ...

وتعتبر رواية « الأوقات العصيبة » التى كتبت عام ١٨٥٤ من أشهر وألمع ما كتب تشارلز دكنز ....

أملى أن تلقى هذه الترجمة الأولى لهذا العمل الخارق الجودة والبالغ المتعة ما تستحقه من ترحيب وتقدير لعلنى بذلك أقدم يد المساعدة للقارىء العربى وجميع طلاب مصر من الذين يدرسون هذه الرواية ... ولقد أردت بترجمتها معاونتهم على فهم المتن الانجليزى حتى تعم الفائدة ويتحقق المنشود وحتى يقرأها أكبر عـــدد ممكن من طلاب المعرفة ومن عاشقى تشارلز دكنز ، ذلك الروائى العظيم على مدى الأيام والقرون ...

والله ولى التوفيق ،

أمين ســلامة

١٩٩٣/١/١

أوقات عصيبة

الجزء الأول

الغرس

الباب الأول

الشيء الوحيد المطلوب

« ما أريده هو الحقائق . لا تلقن هؤلاء الأولاد والبنات شيئا غير الحقائق . ولا نحتاج ، فى الحياة ، الى أى شىء سوى الحقائق .. لا تزرع شيئا آخر ، واقتلع كل ماعداها . لايمكنك تكوين عقول الحيوانات العاقلة ، الا بالحقائق .. الحقائق وحدها ، ولا شىء غيرها ، ينفعهم . هذا هو المبدأ الذى أنشىء عليه أطفالى . وهذا هو المبدأ الذى أربى بمقتضاه هؤلاء الأطفال . التزم الحقائق ، يا سيدى ! »

كان المنظر فصلا دراسيا بسيطا مجردا ، واصبع المتكلم الثابتة ، تؤكد ملاحظاته ، ويساعد فى التأكيد حائط جبهة

المتكلم الواضحة ، التى قاعدتها الحواجب ، بينما كانت عيناه فى كهفين مظلمين تحت ذلك الحائط ٠ كما يساعد على التأكيد ، فم المتكلم ، الواسع والرفيع والثابت ٠ كذلك ساعد فى التأكيد ، صوت المتكلم القوى والجاف والدكتاتورى الآمر ٠ وساعد فى التأكيد ، أيضا ، شعر المتكلم الذى وقف على جانب رأسه كالأشجار ٠٠ كما أن سترة المتكلم المناسبة ، وساقيه الثابتتين ، وكتفيه العريضتين ، ساعدت كلها فى التأكيد ٠ وحتى ياقة سترته ، بدت كما لو أنها أمسكته من خناقه ، كحقيقة ثابتة ٠٠

تزحزح المتكلم ، والمدرس ، والشخص الثالث الكبير الذى كان حاضرا ، تزحزحوا كلهم ، قليلا ، الى الخلف ، وألقوا نظرة الى التخوت المليئة بالأطفال ، تلك الأوعية المرتبة بنظام ، استعدادا لتنال مكاييل من الحقائق ، تصب فيها حتى تملأها الى حافاتها ٠

الباب الثانى

قتـــل الأبريـــاء

اعتـــاد ثوماس جرادجرايند Thomas Gradgrind أن يقدم نفسه ، دائما ، بنفس الألفاظ ٠

« ثوماس جرادجرايند ، ياسيدى ! رجل الوقائع ٠ رجل الحقائق والحسابات ٠ رجل يسير على مبدأ أن اثنين واثنين ، تكون أربعة ولا أكثر من ذلك ٠ رجل لا يســـمح بامكان وجود شىء أكثر ٠ ثوماس جرادجرايند ، ياسيدى٠ يضع فى جيبه ، دائما ، مسطرة وكفتى ميزان ، ياسيدى ، مستعدا ليزن ويقيس أى طرد من الطبيعة البشرية ، ويخبرك بماهيته ، بالضبط ٠ إنها مســـألة أرقام ، وحالة حساب بسيط ٠٠ يمكنك أن تأمل فى ادخال اعتقاد غير معقول ، فى رأس چــــورج جرادجرايند ، أو فـــى رأس چــــون جرادجرايند ٠ أما فى رأس ثوماس جرادجرايند ، فلا ، ياســيدى ! » ٠

ثبت ثوماس جرادجرايند عينيه بامعان ،على الأطفال الجالسين أمامه ، والذين سيملؤهم تماما بالحقائق ٠٠ كان

نوعا من مدفع ضخم محشـــو بالحقائق ، متأهبا لاطلاقها على الأطفال فى طلقة واحدة ٠

قال المستر جرادجرايند : « الفتاة رقم عشرين » ٠ وهو يشير اليها بالضبط ، باصبعه الثابتة ٠ « لست أعرف هذه الفتاة ٠ ٠من هى تلك الفتاة ؟ »

فقالت رقم عشرين : « أنا سيسى چوب Sissy Jupe ياسيدى » ٠ وأحمر وجهها بشدة عندما وقفت ٠

فقال المستر جرادجرايند : « سـيسى ليس اســما ٠ لا تطلقى على نفسك اسم سيسى، وانما أطلقى عليها سيسيليا Cecilia ».

فأجابت الفتاة الصغيرة بصوت مضطرب ، فقالت : « أبى هو الذى سمانى سيسى ، ياسيدى » ٠

فقال المستر جرادجرايند : « لا يحق له أن يسميك هكذا ٠ أخبريه ، يا سيسيليا چوب بأنه لا يحق له أن يسميك هكذا ٠ ولننظر الآن ، ما مهنة والدك ؟ »

« ان طاب لك أن تعـرف ، ياســيدى ، انه يدرب الخيول للسيرك »

بدا المستر جرادجرايند مستاء ، وأشار بيده معبرا عن امتعاضه من هذه المهنة البغيضة ٠

« لا نريد أن نعرف شيئا عن مسارح السيرك هنا • والآن، ياسيسيليا ، بماذا تعرفين الحصان ؟ »

ارتبكت سيسى چوب أعظم ارتباك بهذا الطلب •

فقال المستر جرادجرايند : « لا تستطيع الفتاة رقم عشرين تعريف الحصان • لا تعرف الفتاة رقم عشرين أية حقائق عن حيوان من أكثر الحيوانات شيوعا • هل يستطيع أحد الأولاد تعريف الحصان ؟ عرفه لنا ، يا بيتزر Bitzer. »

تحركت الاصبع الثابتة ، هنا وهناك ، ثم توقفت فجأة وهى تشـــير الى پيتزر • ربما لأن پيتزر تصـــادف أن كان يجلس فى نفس مسار شعاع الشـــمس الساقط على سيسى • كانت سيسى فى نهاية صف البنات ، فى الجانب المشمس من تلك الحجرة الواسعة العارية • وپيتزر فى نهاية صف الأولاد من الجانب الآخر تسقط عليه نهاية شعاع الشمس •• واذ كانت سيسى سوداء العينيين ، وفاحمة الشعر ، بدت تنال أحلك لون من ضوء الشمس • بينما كان ذلك الغلام زاهي العينين ، وزاهى الشعر ، حتى ان نفس الأشعة بدت تأخذ منه قليلا من اللون الذى يملكه • كانت عيناه زاهيتين وباردتين • وبشرته بيضاء تبدو كما لو كانت ستنزف دمـا أبيض ، ان جرحت • ويكاد شعره القصير ، يكون بلون بشـــرته •



تحركت الأصبع الثابتة ، هنا وهناك

فقال المستر جرادجرايند : « ماهو تعريفك للحصان ، يا پيتزر ؟ »

« حيوان من ذوات الأربع ، له أربعون سنا • يفقد جلده فى الربيع • نعرف عمره بعلامات فى الفم » •

هكذا (وأكثر من هذا) يا پيتزر •

فقال المستر جرادجرايند : « والآن ، يافتاة رقم عشرين ، هانتذا تعرفين ماهو الحصان » •

قالت : « نعم ، ياسيدى » • وكان لونها ســتشتد حمرته ، ان أمكن ذلك • وجلس پيتزر ثانية •

خطا الشخص الثالث الى الأمام ، وكان رجلا عظيما ، موظفا حكوميا ، ولديه دائما خطة يرغم الحاضرين على قبولها ، كما لو كانت دواء يبتلعونه •

قال : « والآن ، افرضوا أنكم ذهبتم لشراء طنفسة لحجرة ، فهل تشترون طنفسة مزخرفة بأزهار ؟ »

فقال معظم الأولاد : « لا » • ولم يقل « نعم » سوى القليل ، ومنهم سيسى چوب •

فقال ذلك الرجل : « يافتاة رقم عشرين »» • فوقفت ، وقد احمر لونها بشدة •

قال : « اذا فهل ستضعين طنفسة فى حجرتك أو فى حجرة زوجك ، مزخرفة بالأزهار ؟ لماذا ذلك ؟ »

فأجابت الفتاة تقول : « من فضلك ياســـيدى ، أنا مولعة جدا بالأزهار » .

« هل هذا هو السبب فى أن تضــعى عليهــا الموائد والمقاعد ، وتسمحى للناس بأن يمشوا فوقها بأحذية ثقيلة؟»

« ذلك لا يضر الأزهار ، ياسيدى . ستكون صورا لما هو جميل جدا ، وسار وأتصور ... » .

فصاح الرجل ، وقد سره تماما ، الوصول سعيدا الى ما يريد . فقال : « يجب ألا تتصـــورى .... ينبغى ألا تتصــورى » .

فقال ثوماس جرادجرايند ، بجـــدية : « ينبغى ألا تفعلى أى شىء من هذا القبيل ياسيسيليا چوب » .

فقال الرجـــل : « الحقيقة ، الحقيقة ، الحقيقة » وكرر ثوماس جرادجرايند قوله : « الحقيقة ، الحقيقة ، الحقيقة » .

ثم قال ذلك الرجل : « يجب أن تسيرى على نظام الحقيقة ، وتحكمك الحقيقة . ينبغى أن تنسى كلمة تصور ،

تمام النسيان . الواقع أنك لا تسيرين فوق أزهار . ولذا ، لا يسمح لك بالسير فوق أزهار فى الطنافس » .

جلست سيسى ، وكانت صغيرة السن جدا وبدت كما لو كانت خائفة من موضوع عالم الحقيقة الماثل أمامها .

استدار الموظف الحكومى ، نحو المستر جرادجرايند ، وقال: «ان جاء المستر م.تشوكامتشايلد M. Choakumchild الى هنا ، وشرع يلقى أول درس له ، فسأكون سعيدا لملاحظة طريقته » .

أخذ المدرس ، وهو رجل أسكتلندى ، يدعى م. تشوكامتشايلد ، أخذ يلقى الدرس ، بأحسن طريقة لديه .. لقد تخرج ، حديثا هو ومائة وأربعون مدرسا آخرين ، فى نفس الوقت ، وفى نفس المعهد ، وبنفس المبدأ كأنهم أرجل معزف متشابهة . درس العديد من الحقائق عن عدة موضوعات . ولو درس أقل من ذلك . فماذا يمكنه أن يعلم أكثر من هذا ؟

الباب الثالث

مخــــرج

سار المسترجرايند عائدا من المدرسة الى بيته وهو يشعر بالرضى التام • فهى مدرسته وقد صمم على أن تكون نموذجية ، ويكون كل أطفالها نموذجيين مثلما كان أولاده، هو نفسه ، نموذجيين •

كان المستر جرادجرايند يلقى المحاضرات الى أطفاله الصغار ، منذ السنوات الأولى من أعمارهم • وفى أغلب الأحيان بمجرد أن يستطيعوا الجرى وحدهم ، فيجروا الى حجرة المحاضرات ، وينظروا الى سبورة كبيرة عليها علامات بالطباشير الأبيض •

ما من طفل من أولاد جرادجرايند ، نظر الى وجه فى نور القمر • وما من طفل من أولاده تعلم أناشيد الحضانة السخيفة •

تقاعد المستر جرادجرايند من عمله ، وبنى لنفسه منزلا كبيرا فى الريف ، على مسافة حوالى كيلو متر من

البلدة الصناعية الكبرى كوكتاون Coketown فى شمالى انجلترا . وكان يتحين كل فرصة ليجعل لنفسه اسما فى البرلمان .

أطلق المستر جرادجرايند على بيته اسم « ستون لودج Stone Lodge » ومعناه (المسكن الحجرى) . وكان بيتا ضخما ، مربع الشكل ، به عدة حجرات . جعل لأولاده منها حجرات للمواد الخام ، وحجرة للمعادن . كل شىء مرتب بنظام وعليه بطاقة باسمه .

يسير المستر جرادجرايند نحو داره ، وهو يشعر بالأمل وبالرضى . وكان أبا محبا . ولكنه ربما وصف نفسه بأنه عملى أساسا . ويفخر بأن غيره من الناس ، يعتبرونه رجلا عمليا .

ما ان وصل المستر جرادجرايند الى الجزء الخارجى من تلك البلدة التى لم تكن من الحواضر ، ولا من الأرياف، حتى سمع صوت موسيقى ، وشاهد فسطاط سيرك متجول، وأبصر علما يرفرف فى قمة الفسطاط يعلن أنه « معرض سليرى Sleary لركوب الخيل » وأعلنت الملصقات أن الآنسة جوزفين سليرى Josephine Sleary ، تعرض ألعابها على ظهور الخيل . كما تمكن رؤية السنيور چوب Jupe وكلابه المدربة ، المعروفة باسم « ميرى ليجز Merry Lego » ، ومعناها (الأرجل المرحة) .

بينما كا ن المستر جرادجرايند يسرع بجانب ذلك المكان الصاخب ، اذ أبصر ، فجأة ، جمعا من الأطفال خارجه ، يحاولون استراق النظر الى داخل الفسطاط · فلم يستحسن ذلك ، واقترب ليرى ما اذا كان يعرف أحـــدا من أولئك الأطفال ·· ومن أبصره هناك سوى ابنته لويزا Louisa تنظر خلال ثقب فى الحائط ،وابنـــه توماس راقدا على الأرض يحاول مراقبة أقدام الخيول ؟

« يا لويزا ! يا توماس ! »

نهض كلاهما وقد احمر وجه توماس وبدا الخـــوف والخجل والقلق على محياهما · الا أن لويزا نظرت الى أبيها بجرأة أكثر مما فعل توماس ·· الواقع أن توماس لم ينظر اليه ، ولكنه استســـلم لأن يؤخـــذ الى البيت كمـــا لو كان آلة ·

قال المســـتر جرادجرايند : « ماذا تعملان هنا ؟ » وأمسك كلا منهما من يده ، وقاده بعيدا » ·

فقالت لويزا ، باختصار : «أردنا أن نرى ماذ هناك» ·

بدا كل من الطفلين ، متعبا ومستاء ، ولاسيما الفتاة · ومع ذلك ، كان بوسعك أن ترى فى وجهها تخيلا قلقا · أشبه بشعاع ضوء لا يجد شيئا يسقط عليه ، أو نار لا تجد ما تحرقه · وبقى هذا التخيل المتلهف ، حيا ، بطريقة ما ·

ووضحت ملامح وجه الفتاة ، ليس بالضوء الطبيعى للشباب المرح ، وانما بخلجات مرتابة غير متأكدة ، تنم عن وجود شئ مؤلم فيها .

لويزا فتاة جميلة لا تزيد سنها على ١٥ أو ١٦ سنة . ولكن أباها فكر فى أنها ستغدو امرأة فجأة . وستكون أكثر اصرارا على أن تسير بحسب طريقتها الخاصة ، لو لم تنشأ جيدا على ذلك النحو .

قال الأب : « يا ثوماس ، انى لأجد صعوبة فى أن أصدق ، أنك ، رغم تعليمك ، قد أحضرت أختك الى منظر كهذا » .

فقالت لويزا ، بسرعة : « أنا التى طلبت منه أن يأتى » .

« يؤسفنى أن أسمع هذا ، فهو لا يجعل ثوماس أفضل ، ويجعلك أسوأ ، يا لويزا » .

نظرت الفتاة الى أبيها ، مرة ثانية ، ولكن ما من دمعة نزلت على خدها .

صاح المستر جرادجرايند ، يقول : « أنت ! ثوماس وأنت ، يا من دائرة المعارف مفتوحة أمامكما . ثوماس وأنت ، يا من يمكن القول بأنكما ملمان جيدا بالحقائق . ثوماس وأنت ، يا من تدربتما على دقة الرياضيات . ثوماس وأنت ، هنا ! أنا مدهوش » .

فقالت لويزا : « كنت متعبة ، يا أبى ظللت متعبة لوقت طويل » .

فسألها الأب المدهوش ، بقوله : « متعبة ؟ من أى شىء متعبة ؟ »

« لست أدرى من أى شىء . متعبـــة من كل شىء ، على ما أظن » .

« هذا كلام أطفال ، ولن أسمع المزيد » .

لم يتكلم الأب ثانية ، حتى ساروا مسافة نصف كيلو متر ، بعد ذلك فى صمت . ثم قال الأب فى جدية : « ماذا يقول خير أصدقائك ، يا لويزا ؟ ألا تقدرين رأيهم الحسن ؟ ماذا يقول المستر باوندرباى Bounderby? »

ما ان ذكر المستر جرادجرايند هذا الاسم حتى نظرت اليه ابنته بسرعة ، نظرة فاحصة . ثم أسرعت بالنظر الى أسفل مرة أخرى . ولم يبصر الأب هذه النظرة .

قال : « ماذا يقول المستر باوندرباى ؟ » وظل يكرر هذه العبارة ، طوال الطريق ، حتى وصلوا الى سـتون لودج ، وهو يقود الأولاد الى البيت . كان يكرر من وقت الى آخر ، قوله : « ماذا يقول المستر باوندرباى ؟ »

الباب الرابع

المستر باوندرباى

من هو المستر باوندرباى ؟

هو رجل غنى : صاحب مصرف ، وتاجر ، وصانع .. رجل كبير الجسم ، عالى الصوت ، لضحكته رنين . ينظر اليك نظرة شديدة . يتكون جسمه من مادة ، يبذو أنها مدت لتجعله ضخما . يفخر دائما بأنه كون نفسه بنفسه . يقرر ، بصوته الجهورى الشبيه بصوت البوق النحاسى ، أنه كان فى صباه ، فقيرا وجاهلا .

يصغر المستر باوندرباى صديقه العملى ، المستر جرادجرايند ، بسنة أو بسنتين ، ولكنه يبدو أكبر منه سنا .. سقط كل شعره ، ولم يبق منه سوى القليل . قد يخيل الى المرء ، أنه محا شعره بكثرة كلامه . ربما كان الشعر الباقى فى رأسه ، غير مرتب اذ تهب عليه باستمرار ، مباهاته بصوت عال ، كأنه اعصار .

وقف المستر باوندرباى على البساط أمام وطيس حجرة الجلوس فى ستون لودج ، يتحدث مع مسز جرادجرايند ، فيقول :

« كنت حافى القدمين ، وأنا طفل ، ليس عندى حذاء . أما الجورب ، فلم أعرف اسمه . كنت أقضى نهارى خارج البيت ، وأنام ليلا مع الخنازير . هكذا قضيت عيد ميلادى العاشر .

كانت مسز جرادجرايند ، حزمة صغيرة من الملابس الرفيعة البيضاء ، حمراء العينين . انها ضعيفة الجسم والعقل ، تتناول الدواء باستمرار ، دون أية جدوى . وكلما أبدت علامة ما ، تدل على أنها حية ، هزمتها قطعة عظيمة من الحقيقة .

« وهكذا ، هأنذا فى يوم عيد ميلادى ، يا مسز جرادجرايند . لا أشكر عليه أحدا غير نفسى » .

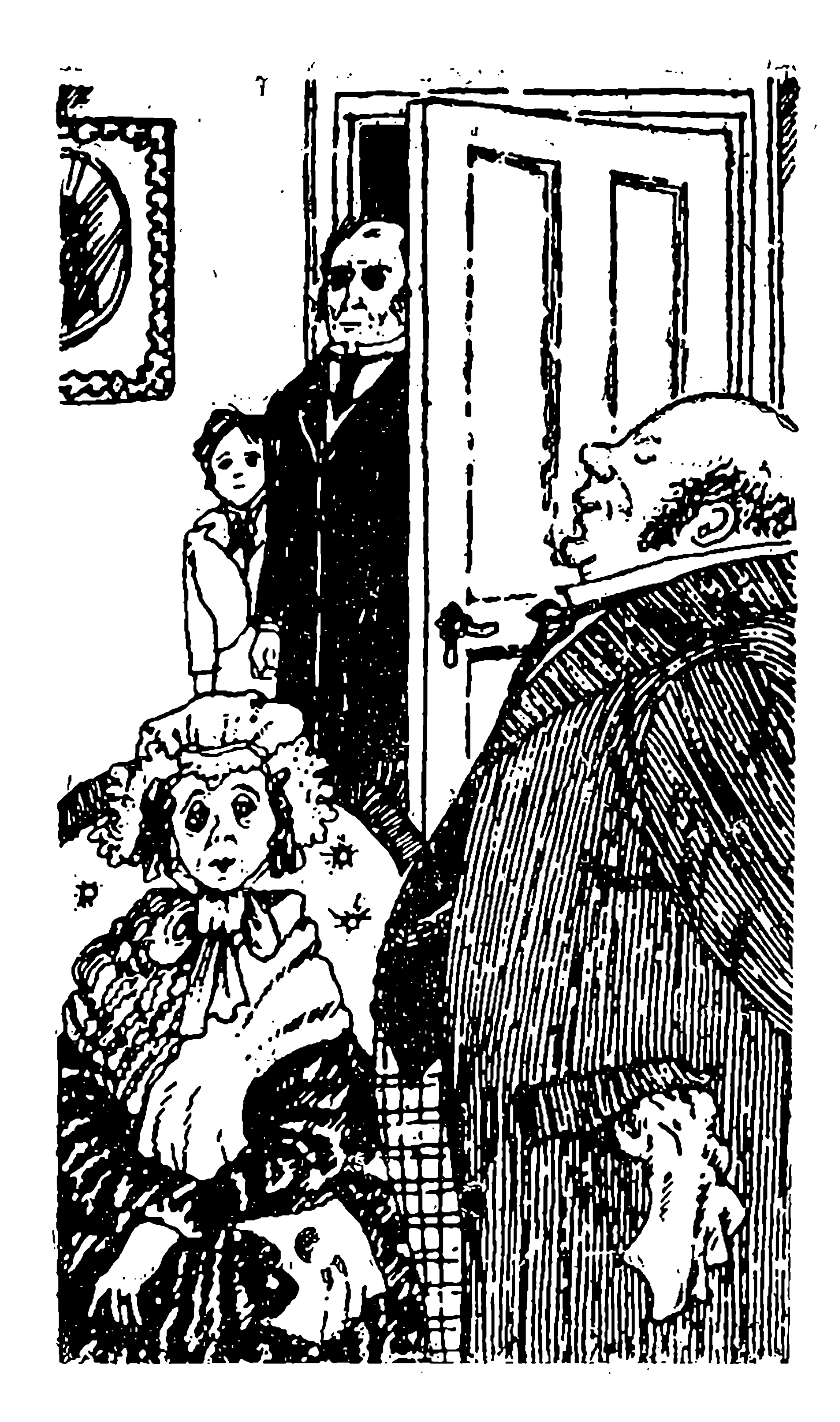
تمنت مسز جرادجرايند أن والدته .... » .

فقال المستر باوندرباى : « والدتى ماتت ، ياسيدتى! »

لم تحاول مسز جرادجرايند أن تفهم .

فقال باوندرباى : « تركتنى أمى لجدتى . وكانت جدتى أسوأ امرأة فى هذه الدنيا . فلو حصلت على زوج أحذية بسيط ، أخذته وباعته لتشترى بثمنه خمرا » .

ابتسمت مسز جرادجرايند ، فى ضعف ، ولم تبد أية أمارة أخرى للحياة . تبدو ، مثلما تبدو دائما ، كأنها صورة فوتوغرافية لأنثى صغيرة ، التقطت فى نور غير كاف .



كانت مسز جرادجرايند ، حزمة صغيرة
من الملابس الرقيعة البيضاء حمراء العينين

استطرد باوندرباى ، يقول : « تملك جدتى حانوتا ، وتحتفظ بى فى صندوق بيض ، كان فراشى أيام طفولتى .. ولكننى ارتفعت فوق ذلك النوع من الحياة . فما ان كبرت ، حتى هربت .. اشتغلت عاملا فى مصنع ، ثم كاتبا ، ثم ارتقيت فصرت مدير مكتب . ثم شريكا فى مؤسسة . ولكن المستر چوزياه باوندرباى Josiah Bounderby ، لم يتلق تعليما ، بل تعلم الحروف من واجهات الدكاكين . هـذا هو مواطن كوكتاون ، يا مسز جرادجرايند » .

عندئذ ، دخل المستر جرادجرايند مع لويزا وثوماس الصـغير .

صاح المستر باوندرباى ، يقول : « ما الخطب ؟ لماذا يبدو ثوماس الصـــغير مكتئبا ؟ » كان يتـكلم عن ثوماس الصغير ، ولكنه كان ينظر الى لويزا .

فقالت لويزا بصوت منخفض ، دون أن ترفع عينيها : « كنا نلقى نظرة الى السيرك ، فضبطنا أبونا » .

فقال الأب : « يامستر باوندرباى ، بدا الأمر كما لو أننى وجدت أطفالى يقرءون الشعر » .

فقالت مسز جرادجرايند بصوت ضعيف : « يتملكنى العجب منكما . كيف أمكنك ، يا لويزا ، وأنت يا ثوماس ، أن تفعلا ذلك ؟ انكما لتجعلاننى أسف على أن لى أسرة . كم

أتمنى لو أنه مـــا كانت لى أسرة ! ماذا فعلتما ؟ أريد أن أعرف » .

لم يظهر فى ملامح المستر جرادجرايند ما يفيد تأثره بمنطق زوجته ، بل بدا عليه القلق .

استأنفت مسز جرادجرايند حديثها ، فقالت : « لماذا لم تذهبا لمشاهدة قواقعكما ، والمـــواد الخام ، والأشياء العلمية ، بدلا من مشاهدة مسارح السيرك ؟ أنا على يقين من أن لديكما ما يكفى لتعملاه.ان كان هذا هو ما تريدانه. لا أستطيع ، ورأسى بحالته الحاضرة ، أن أتذكـــر نصف الحقائق . فهناك الكثير منها » .

أمرت مسز جرادجرايند طفليها ، بالعودة الى حجرة استذكار دروســـهما . وبقيت وحدها مع زوجها والمستر باوندرباى ، وراحت ، مرة أخرى ، فى غيبوبة . ولكن لم يلتفت اليها أحد .

قال المستر جرادجرايند : « يا باوندرباى ، أنت مولع دائما بطفلى ، وخصوصا لويزا ـ أقول لك هذا صراحة ـ لقد استأت كثيرا . اذ خططت ، بحساب تعليم دقيق ، عقل أسرتى . يجب توجيه التعليم الى العقل ، كما تعرف . فلماذا شغفا بذلك السيرك ؟ »

أجاب صديقه ، يقول : « أقــول لك لمـــاذا .. انه الخيال السيىء » .

فقال الأب العملي : « آمل فى ألا يكون كذلك . ولكن يدور بخلدى : هل يمكن أن يكون توماس ولويزا ، قد قرءا كتاب قصص سيئا ؟ كيف وصل مثل ذلك الكتاب الى هذا البيت ؟ »

فقال باوندرباى : « انتظر لحظة . لديك فى المدرسة طفلة من السيرك » .

قال : « انها سيسيليا جوب » .

فقال باوندرباى : « اذا ، فسأخبرك بما تفعله . افصل هذه البنت من المدرسة ، ينتهى الأمر » .

« نعم ، أنا من رأيك تماما » .

فقال باوندرباى : « افصلها فى الحال . كان هذا هو اعتقادى دائما . افصلها فورا » .

فقال صديقه : « لدى عنوان أبيها . سأذهب الى البلدة . الديك مانع من أن تذهب معى ؟ »

فأجاب باوندرباى ، يقول : « ولا أقل مانع . على شرط أن تفصلها فى الحال » .

وعلى هذا ألقى المستر باوندرباى قبعته على رأسه . انه يلقيها دائما ليبين أنه رجل مشغول بأمور هامة وليس لديه وقت ليلبس قبعته بعناية .

بينما كان المستر جرادجرايند يبحث عن العنوان ، زار المستر باوندرباي لويزا وتوماس الصغير فى حجرتهما .

فقال لهما : « اتفقنا الآن ، يا لويزا ، واتفقنا الآن ، يا توماس الصغير . لن تذهبا الى السيرك بعد ذلك . ولن يقول أبوكما شيئا عن هذا الموضوع . اذا ، يا لويزا ، فأنت تستحقين قبلة على هذا . أليس كذلك ؟ »

فقالت لويزا ، وقد وقفت ببرود : « يمكنك أن تأخذها يا مستر باوندرباى » . وسارت ببطء عبر الحجرة ، ورفعت خدها نحوه ، وقد أدارت وجهها بعيدا .

« أنت ، دائما ، عزيزة عندى ، يا لويزا ، أليس كـــذلك ؟ »

انصرف المستر باوندرباى ، ولكن لويزا بقيت واقفة في نفس المكان ، تمسح بمنديل ، خدها الذى قبله المستر باوندرباى .

الباب الخامس

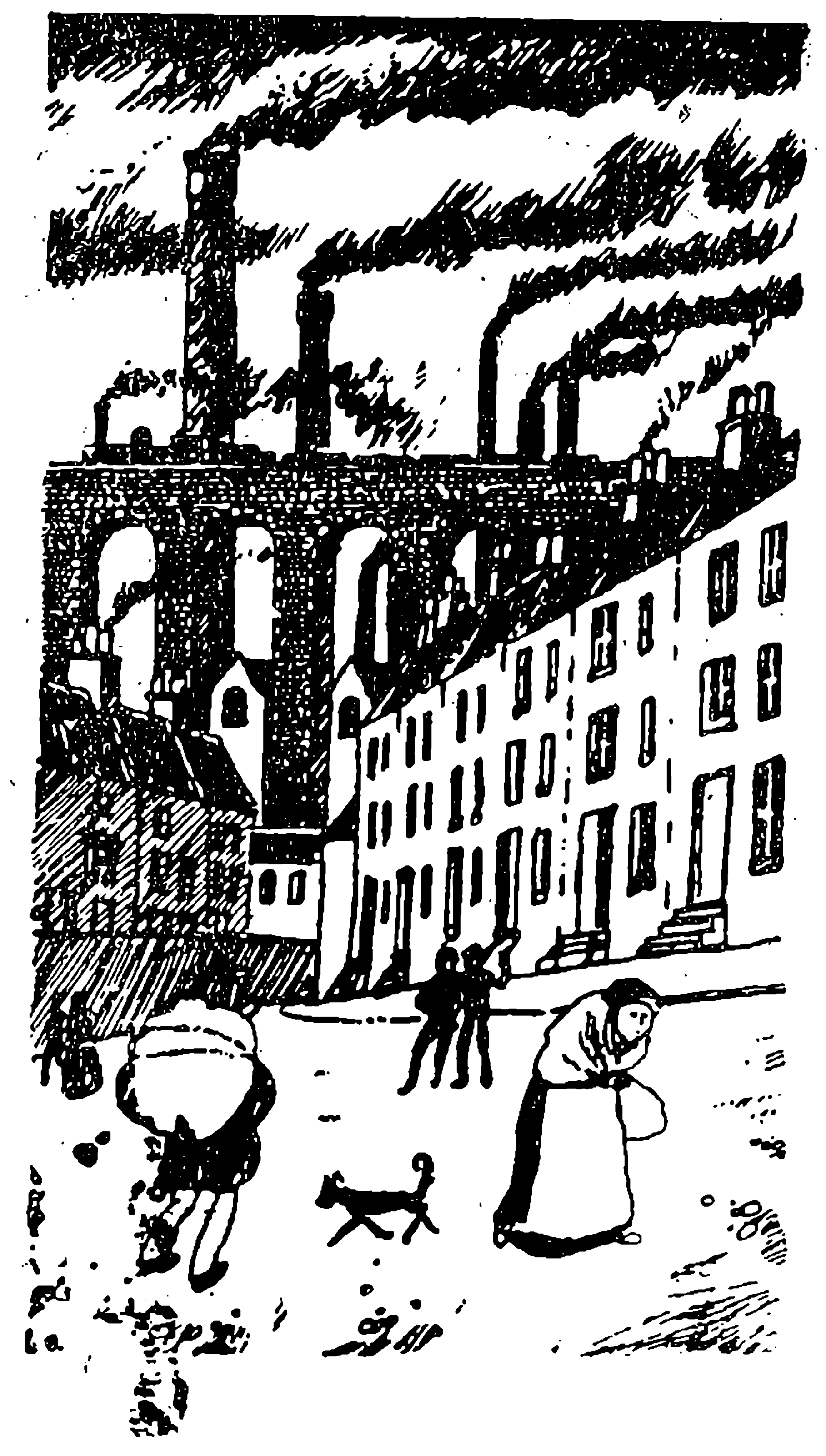
كوكتاون

كوكتاون بلدة مبنية بالطوب الأحمر أو بالطوب الذى يسمح له الدخان والرماد بأن يبدو أحمر اللون .. انها بلدة الآلات والمداخن العالية التى يتصاعد منها الدخان كثيفا فيدور ويدور فى الهواء بلا نهاية ولا انقطاع .

بتلك البلدة قناة سوداء ، ونهر قذر . وتضم المبانى الصناعية الضخمة المليئة بالنوافذ ، والتى يستمر الطرق والارتجاج فيها طول اليوم . فتتحرك ذراع الآلة البخارية علوا وانخفاضا باستمرار ، كأنها رأس فيل غاضب هائج .

فى كوكتاون كثير من الشوارع الكبيرة ، كل منها يشبه الآخر تمام الشبه ، وبها كثير من الشوارع الصغيرة المتشابهة أيضا . ويسكنها أناس كل واحد منهم مثل الآخر . يدخلون ويخرجون ، جميعا ، فى نفس الوقت وبنفس الصخب ، وعلى نفس الطوار ، ليؤدوا نفس العمل . وكل شخص منهم يرى اليوم مثل الأمس ومثل الغد . وكل سنة مثل السنة السابقة لها ومثل السنة القادمة .

كوكتاون بلدة الحقيقة ، لا خيال فيها . بنيت كنائسها



كوكتاون بلدة الآلات والمداخن
العالية التى يتصاعد منها الدخان

مثل المصانع ، ومنظر المستشفى بها كمنظر السجن • وجميع اللافتات بتلك البلدة منقوشة نقشا متشابها ، بحروف من الأسود والأبيض •

الحقيقة ، الحقيقة ، الحقيقة ، بكل موضع فى المظاهر الهامة بهذه البلدة • والحقيقة ، الحقيقة ، الحقيقة فى كل مكان بالمظاهر غير الهامة • والمدرسة كلها حقيقة • والعلاقات بين الرئيس والعامل، في المصانع ، كلها حقيقة• وكل شىء حقيقة بين الميلاد والوفاة وليس هناك أى شىء لا يمكنك ذكره بالأرقام • ولا يمكن أن يوجد شىء بوسعك أن تشتريه رخيصا وتبيعه غاليا •

يحيرنى ما اذا كان من الممكن أن يوجد شبه بين أهل كوكتاون ، وبين أبناء أسرة جرادجرايند الصغار • وهل يمكن أن يشبهوا أولاد عائلة جرادجرايند في حاجتهم الى التسلية ؟

بينما يسير المستر جرادجرايند ، والمستر باوندرباى فى طريقهما لمقابلة المستر چوب ، التقيا بسيسيليا چوب ، أرسلها أبوها لتشترى له زيتا يدهن به جسمه ، اذ أصيب فى حلبة السيرك • فقادتهما الى فندق صغير اسمه « ذراعا پيجاسوس Pegasus » ، يقيم به أبوها وبعض موظفى السيرك •

الباب السادس

فنون سليرى بالخيول

لم يكن بالفندق ولا خارجه أى دليل على وجود المستر چوب ‥ جرت سيسى من الفندق الى السيرك ووجهها ينم عن الرعب الشديد ۰ وشعرها الطويل الفاحم يطير خلف ظهرها وهى تجرى بحثا عن أبيها ۰

أثناء غياب سيسى ، تحدث أحد لاعبى السيرك ، واسمه تشايلدرز Childers ، مع المستر جرادجرايند ، فأفهمه أن والد سيسى لم يكن يؤدى عروضه كما ينبغى ، فى الآونة الأخيرة ، فى حلبة السيرك ۰

فقال المستر جرادجرايند: «معى رسالة للمستر جوب»۰
فقال المستر تشايلدرز : « أرى أنه لن يتسلمها ۰ هل تعرف الكثير عنه ؟ »

فقال جرادجرايند : « لم أره فى حياتى » ۰
قال : « وأنا أشك فيما اذا كنت ستراه ۰ من الواضح جدا أنه هرب » ۰
« أتقصد أنه هجر ابنته ؟ »!

فقال تشايلدرز : « نعم ، انه هرب ۰ لقد دبت

الشيخوخة فى عضده ، فما عاد يقـــوم بعروضه جيـدا .
والمتفرجون لا يحبونه الآن . وابنته لا تعرف هذا ، وهو
لا يريدها أن تعرف .. رأيناه ينصرف وقد أمال قبعته فوق
عينيه ، وتحت ذراعه صرة مربوطة بمنديل . ولكن سيسى
لن تصدق أبدا أنه هرب وتركها » .

فقال المستر جرادجرايند : « لمـاذا لا تصـــدق ؟ »
لأنه هو وابنته ،لميكونا شخصين، بل كانا شخصا واحدا ،
لم يفترقا أبدا . أراد والدها أن يعلمها . ولكن كيف يدخل
التعليم رأسها . لا أستطيع أن أعرف . وكل ما أعرفه . هو
أنه لم يخرج أبدا . فنحن معشر أعضاء السيرك ، لا نستقر
فى أى مكان ، بل نتنقل دائما .. ولكن ، لمـــاذا دخلت
سيسى المدرسة ؟ سر أبوها لهذا سرورا بالغا . ربما ظن أن
التعليم سيتكفل بمستقبلها . وربما لأنه كان ينوى ، دائما ،
أن يهرب . وعلى هذا ، ان كان بوسعك أن تساعد سيسى ،
الآن ، بطريقة ما ، كان هذا من حسن الحظ ، من الحظ
الحسن جدا ، وفى الوقت المناسب » .

فقال المستر جرادجرايند : « بالعكس ، جئت الى هنا
لأخبر المستر چوب بأن ماضى سيسيليا فى السيرك ، لا يصلح
لمدرستنا . يجب ألا تأتى اليها فى المســتقبل . ولكن ،
طالما أن والدها تركها ..... أسمح لى ، يا باوندرباى ،
بكلمة معك » .

تكلم الرجلان معا ، لبرهة من الوقت ، فحاول المستر باوندرباى أن يحث جرادجرايند على ألا يحتفظ بسيسى فى المدرسة ٠

فى تلك الأثناء ، جاء مختلف أعضاء سيرك سليرى الى الحجرة ، ووقفوا يتكلمون بأصوات هادئة ٠ وأخيرا ، قدم المستر سليرى صاحب السيرك ٠ وكان رجلا كبير الجسم ، خشن الصوت ٠ فثبت احدى عينيه بينما تسرح العين الأخرى فيما حواليه ٠

فقال للمستر جرادجرايند ، وهو يلهث : « هذه مسألة غير طيبة ، ياسيدى ٠ سمعت أن المستر چوب وكلبه المدرب ، قد هربا ٠ فهل بوسعك أن تفعل شيئا لهذه البنت المسكينة ؟ »

عند ذلك ، رجعت سيسى ٠ فلما أبصرت الحجرة مليئة بالناس ، وليس أبوها بينهم ، انخرطت فى البكاء ، فأمسكها أعضاء السيرك وهدءوها ٠

واذ كان المستر جرادجرايند رجلا متعقلا وعمليا ، كعادته ، تكلم يقول :

« ليس من المهم أن نتوقع عودة ذلك الرجل ، أو عدم عودته ٠٠ انه هرب ، وليس من المتوقع الآن أن يعود ٠ هذا هو ما يتفق عليه كل واحد منا ، على ما أظن » ٠

فقال سليرى : « هذا متفق عليه ، ياسيدى » .

« والآن ، يا ســـيسيليا چوب ، أريد أن أتكفل بك وأعلمك . والشرط الوحيد الذى أطلبه ، هو ألا تتصلى بأى واحد من أصدقائك هؤلاء » .

عندئذ سأل المستر سليرى سيسى عما اذا كانت تفضل البقاء معهم وتتعلم لتصير واحدة من عارضات السيرك ..

بينما تفكر سيسى فى هذا الموضوع ، قال المســتر جرادجرايند : « الملاحظة الوحيــدة التى أبديهـا لك ، ياسيسليا چوب ، هى أنــه من الضرورى جــدا لك ، أن تحصلى على تعليم عملى طيب . فحتى والدك نفسه ، يبدو أنه عرف ذلك وشعر به » .

من الجلى أنه كان لهذه الألفاظ الأخيرة تأثير ملحوظ على سيسى . فتوقفت عن البكاء ، وواجهت المستر جرادجرايند .

همس أعضاء السيرك ، يقولون : « انها ستذهب » .

صاحت ســيسى تقــول : « ولكن ، ان رجع أبى ، فكيف يعثر على ، ان ذهبت ؟ »

فقال المستر جرادجرايند : « لا تشغلى بالك بهــذا الأمر . فى هذه الحالة سيسأل أبوك المســتر سليرى عن مكانك » .

ساد الجو سكون تام ، ثم صاحت سيسى تقول :

« أعطونى ملابسى ، ودعـــونى أذهب ، قبـل أن أكسر قلبى » ٠

أحضرت نساء السيرك ممتلكات سيسى القليلة فقبلتهن قبلة الوداع ٠ وعندما ذهبت لتوديع الذكور من أعضـــاء السيرك ، كان على كل واحد منهم أن يمد ذراعيه ٠ فعلوا ذلك ، جميعا ، لأنها عادتهم عندما يكونون فى حضرة سيد حلبتهم المستر سليرى٠ ثم قبلها كل واحد منهم قبلة الوداع٠

فتح المستر سليرى ذراعيه ، وأمسـك سيسى من كلتا يديها ، كما لو كان لايزال سيد ركوب الخيل ٠ وأنها نزلت لتوها على الأرض من فوق ظهر حصان ٠

قال المستر سليرى : « وداعا ، ياعزيزتى ! هذه هى آخر كلماتى اليك ٠ كونى مطيعة للمســـتر جرادجرايند ، وانسينا نسيانا تاما ٠ ولكن عنـــدما تكبرين وتتزوجين ، وتصيرين غنية ، فان التقيت بأى سيرك ، فلا تشمئزى منه٠ يجب تسلية الناس » ٠ ثم استطرد كلامه يخاطب زائريه بقوله : « ليس بوسع كل انسان أن يعمل باستمرار ، أو يتعلم باستمرار ، يا سيدى ! »

أعلنت فلسفة ســـليرى وهم يهبطون السلم وسرعان ما غاب الأشخاص الثلاثة وسط ظلام الشارع ، من أمام عين الفلسفة الثابتة ، وعينها المتحركة ٠

البــاب السابع

مســز سبارســيت

كان المستر باوندرباى رجلا أعزب ، ترعى بيته سيدة عجوز ، نظير أجر سنوى يدفعه لها ٠انها مسز سپارسيت Sparsit ‥ عاشت قبل ذلك أياما تختلف عن أيامها الحالية ، اذ كانت زوجة رجل ثرى ، ولكنه مات فقيرا بعد أن أنفق كل أمواله على الخمر ٠ بيد أنه كان لمسز سپاسيت أقارب من عليه القوم ٠ فلها عمة عظيمة ، لاتزال على قيد الحياة ، اسمها ليدى سيدجرز Lady Seadgers .

لمسز سپارسيت أنف ضخم معقوف ، وحاجبان كثيفان أسودان ٠ ومع ذلك ، فما زالت أنيقة المنظر ، وأخلاقها محترمة جدا ٠ وكان المستر باوندرباى يعاملها بأدب جم ، احتراما لثرائها السابق ٠

يقول المستر باوندرباى لأصدقائه : « ورغم هذا ، فكيف تصير الأمور أخيرا ؟ انها هنا تعمل بأجر مائة جنيه فى العام ، ترعى بيت چوزياه باوندرباى ، أحد مواطنى كوكتـــاون ٠

بينما كان المستر باوندرباى يتناول طعام افطاره على

المائدة ، قالت له مسز ســـپارسيت : « انك تتناول طعام افطارك ببطء ، فى هذا الصباح ، يا مستر باوندرباى ! »

قال : « لماذا ، يامدام ؟ اننى أفكـــر فى وعد تــوم جرادجرايند السخيف ، بأن يأخذ فتاة السيرك » .

قالت : « تنتظر هذه البنت ، الآن ، لتعرف ما اذا كانت ستذهب الى المدرسة مباشرة ، أم الى بيت المســتر جرادجرايند (ستون لودچ) » .

فقال المستر باوندرباى : « قلت لتوم جرادجرايند ، ان بوسع هذه الفتاة أن تبيت هنا الليلة الماضية ، ويمكنه أن يقرر ما اذا كان سيأخذها الى بيته فى هذا الصباح » .

« حقا ، يامستر باوندرباى ، ما أصوب تفكيرك ! »

انكمش حاجبا مسز سپارسيت الأســودان ، عنــدما شربت قليلا من الشاى .

قال باوندرباى : « يتضح لى ، أن لويزا لن تـحصل على أى شىء طيب من مثل هذه الصحبة » .

تناولت مسز سپارسيت ، قليلا من الشـــاى ، مرة أخرى ، وقالت : « أنت أب آخر للويزا ، يا سيدى » .

« ان قلت ، أننى أب آخر لتوم ـ أى توم الصغير ، وليس صديقى توم جرادجرايند ، كنت أقرب الى الحقيقة . سآخذ توم الصغير فى مكتبى ، يامدام » .

« أليس توم صغيرا لذلك العمل ، ياسيدى ؟ »

خاطبت مسز سپارسيت المستر باوندرباى بلقب « سيدى » لتبين سلوكها المؤدب .

فقال المستر باوندرباى : « لن آخذه الآن ، لابد لذلك الغلام أن يتم تعليمه ، قبل أن يأتى الى سيكون قد نال قسطا كافيا من التعليم وقتذاك . ولكن ذلك الغلام لا يعلم ما نلته أنا نفسى من تعليم بسيط . لذا أجد صعوبة فى مخاطبة الناس كأنداد لى .. والآن ، كنت أتحدث معك عن أعضاء السيرك . ماذا تعرفين عنهم ؟ كان يسرنى ، أنا نفسى ، أن أعمل فى سيرك ، عندما كنت صبيا . ولكنك ، فى ذلك الوقت ، كنت قد خرجت من الأوبرا الايطالية ، تتحلين بمجوهراتك » .

فقالت باحترام : « هذا أكيد ، ياسيدى . عرفت الأوبرا الايطالية وأنا صغيرة السن جدا . آمل فى أن أعتاد تغيرات الحياة . ولكن كل امرىء يلذ له أن يسمع عن تجاربك ، وعن مصاعب حياتك أيام صباك » .

فقال المستر باوندرباى : « حسنا ، يا مدام ! ربما يقول البعض انهم يحبون أن يسمعوا عما سار فيه چوزياه باوندرباى » .

فى تلك اللحظة ، وصل المستر جرادجرايند مع ابنته

لويزا . فاستدعيت سيسى چوب الى الحجرة . فقال لهـا المستر جرادجرايند ؛

« يا چوب . قررت أن أخبـــرك بأننى سآخذك الى بيتى . وعندما لا تكونين بالمدرسة ، فستعملين فى مساعدة مسز جرادجرايند ، لأن صحتها ليست طيبة . وقد أخبرت الآنسة لويزا ، بأن حياتك ، فى السيرك قد انتهت الآن . يجب ألا تتحدثى عنها بعـــد ذلك . وأنت الآن جاهلة . أعرف هذا » .

قالت : « نعم ، ياسيدى . أنا جاهلة جدا . ولكننى تعلمت القراءة . وكنت أقرأ لوالدى » . ثم أخذت تبكى .

نظرت اليها لويزا ، وسألها المستر جرادجرايند بقوله: « ماذا كنت تقرئين لأبيك ؟ »

انتحبت سيسى ، وقالت :«كنت اقرأ له عن الحوريات ، وعن المخلوقات الغريبة » .

« الزمى الصمت ! هذا يكفى . لا تتكلمى عن أمثال هذه الخزعبلات ، بعد الآن ... » ثم استدار نحو صديقه ، وقال له : « يا باوندرباى ، هـــذه البنت فى حاجة الى تدريب وتعليم دقيقين . سألاحظ هـــذا بعـــد الآن ، يا باوندرباى ، وأنا أجد متعة فيه » .

وهكذا ، صحب المستر جرادجرايند وابنته ، سيسيليا جوب معهما الى ستون لودچ. ولم تتكلم لويزا أثناء الطريق بأية كلمة ، سواء أكانت طيبة أم خبيثة .. ثم باشر المستر باوندرباى عمله اليومى ، وأخذت مســز سپارسيت تفكر طول المســاء .

الباب الثامن

لا تتعجب اطلاقا

بعد ذلك ببضعة أيام ، جلست لويزا وأخوها توم فى حجرة استذكار الدروس ، وأخذا يتكلمان .

فقال توم : « أنا أكره حياتى يا لو ، وأكره كل انسان ما عداك » .

وقالت لويزا : « أنت لا تكره سيسى . فهل تكرهها ، يا توم ؟ »

قال : « انها تكرهنى » .

فقالت أخته : « كلا ، انها لا تكرهك . أنا متأكدة من هذا » .

قال : « يجب أن تكرهنى . يجب أن تكرهنا ، جميعا . سيرهقون رأسها بهذا العمل ، على ما أظن . فقد بدأ لونها يمتقع » .

كانا يجلسان بجانب الوطيس . لويزا فى الركن الأكثر ظلاما ، تنظر أحيانا الى أخيها ، وأحيانا تلاحظ النار وهى تشتعل .

فقال توم : « أنا غبى • مجــرد حمــار • وأحب أن أرفس مثل الحمار • وبالطبع ، لن أرفسك يا لو • ولكن عندما أذهب لأعيش مع العجوز باوندرباى ،سآخذ بثأرى» •

« ثأرك ، يا توم ؟ »

قال : « أقصد أن أمتع نفسى قليلا ، وأخرج وأرى الحياة • سأعوض نفسى عن الطريقة التى عوملت بها فى هذا البيت » •

فقالت لويزا : « ستجد المستر باوندرباى يفكر مثل تفكير أبى • وهو أشد قسوة ، وليس رحيما مثل أبى » •

فضحك توم وقال : « لا يهمنى ذلك ، سأعرف كيف أسوس العجوز باوندرباى » •

قالت : « وما طريقتك التى ستسوسه بها ، يا توم ؟ هل هى سر ؟ »

قال : « ان كانت سرا ، فهى ليست بعيدة • انها أنت • فأنت عزيزة على نفسه ، ويعمل أى شىء من أجلك • فاذا قال لى شيئا لا أستسيغه ، فسأقول له : « ستغضب من هذا أختى لويزا ، يا مستر باوندرباى » •

نظرت لويزا الى النار وهى تفكر •

الباب التاسع

تقدم سيسى

لم تجد سيسى چوب وقتا مريحا . فكانت هناك المدرسة . وكانت هناك مسز جرادجرايند . وقد فكرت فى الشهور الأولى ، فى أن تهرب . الا أنها كانت تعتقد أن أباها لم يهجرها . فكانت تعيش على أمل أنه سيعود ، وسيسعده أن يجدها حيث هى الآن . وكانت معلمتها فى المدرسة قررت أن رأس سيسى ضعيف فى الأرقام ، وأنها متأخرة جدا فى دروسها . فهز المستر جرادجرايند رأسه ، وقال ان چوب يجب أن تبقى فى المدرسة . وعلى هذا بقيت سيسى بالمدرسة وصارت أضعف روحا وعقلا .

وذات مساء قالت سيسى للآنسة لويزا : « أتمنى لوكنت مثلك يا آنسة لويزا » . وكانت لويزا تحاول أن تشرح لها بعض الدروس المدرسية .

فقالت لويزا : « لماذا ؟ »

قالت سيسى : « لكى أعرف الكثير مثلك ، يا آنسة لويزا . فكل ما هو صعب على الآن ، سيصير سهلا » .

فقالت لويزا : « لن تكـــونى أحســـن من ذلك ، فى الدروس ، يا سيسى » ٠

قالت سيسى : « أنا أعطى اجابات خطأ دائما فى الفصل ٠ لن أتعلم اطلاقا ٠ ورغم أن أبى المسكين ، أرادنى أن أتعلم ، فأخشى أننى لن أحب التعليم » ٠

فسألتها لويزا بقولها : « وهل كان والدك ،نفسه ، يعرف الكثير ؟ »

« كلا ، يا آنسة لويزا ، الحقيقة أن أبى لا يعـــرف سوى القليل جدا ، وقلما يستطيع الكتابة » ٠

« وماذا عن أمك ؟ »

« يقول أبى انها كانت عالمة ٠ ماتت عندما ولدت ٠٠ كانت راقصة » ٠

« هل كان أبوك يحبها ؟ »

« نعم ، كان يحبها حبا شديدا ، مثلما يحبنى وقد أحبنى أبى من أجل خاطـــرها ٠ كان يحملنى معه أينما ذهب ، وأنا طفلة رضيعة ٠ لم نفترق أبدا » ٠

« ولكنه تركك ، الآن ، يا سيسى ٠ ألم يتركك ؟ »

« لم يتركنى الا من أجل صالحى ٠ ولا أحد يفهمه مثلما أفهمه أنا٠أعرف أنه لن يكون سعيدا الا اذا رجع الى»٠

« أين كنتم تعيشون ؟ »

« لم يكن لنا مكان ثابت نعيش فيه ، بل كنا نتنقل

فى جميع بلاد الدولة • كان والدى عارضا فى السيرك • كان مهرجا » •

فقالت لويزا : « يضحك الناس » •

« نعم ، ولكنهم كانوا ، أحيانا ، لا يضحكون وبعد ذلك ، يبكى أبى » •

« وهل كنت راحته ، فى كل شىء ؟ »

فقالت سيسى وهى تبكى : « نعم ، وأتمنى ذلك • قال أبى اننى كنت راحته » •

دخل توم الحجرة وقال :

« أحضر أبى معه ، العجوز باوندرباى ، الى بيتنا • أريدك أن تأتى معى ، يا لو ، الى حجرة الجلوس • فان أتيت ، دعانى العجوز باوندرباى، الى تناول العشاء معه » •

ذهبت لويزا مع أخيها •

كانت سيسى چوب ، تسأل المستر جرادجرايند دائما ، عما اذا كان قد وصله خطاب عنها • الا أن الجـــواب كان دائما : « لا » • ما من كلمة جاءت من عند أبيها •

الباب العاشر

ستيفن بلاكبول

لم تتناول هذه القصة ، حتى الآن ، سوى المستر باوندرباى الغنى ، وأسرة جرادجرايند المرحة . ولكن هناك كثيرين من أهالى كوكتاون ، فقراء ، يؤدون أعمالا شاقة بالمصانع القبيحة الشكل ، فى وسط كوكتاون . تظهر الطبيعة هناك قوية البنيان ، في الخارج ، بينما في الداخل الهواء القاتل والغازات القاتلة . ويعيش العمال فى شوارع ضيقة . يسرعون خلالها الى أعمالهم ، ويعودون خلالها أيضا ، من تلك الأعمال . وعادة ، يطلقون على أولئك العمال ، اسم « الأيدى » .

من بين هؤلاء العمال رجل يدعى ستيفن بكلاپول Stephen Blackpool ، يبلغ من العمر أربعين سنة . ولكنه يبدو أكبر من سنه . ويعيش عيشة قاسية .

ذات ليلة ماطرة . غادر ستيفن عمله ، بعد أن توقفت الآلات ، ودقت الأجراس ، وأسرعت جميع الأيدى ، رجالا ونساء ، وأولادا وبنات ، الى بيوتهم . الا أن ستيفن وقف ساكنا .

قال ستيفن لنفسه : « لم أبصر راشيل Rachel. »

مرت أمامه جماعات من النساء ، وقد وضعن أغطية على رءوسهن ، لوقايتها من المطر ، بيد أن راشيل لم تكن بينهن .

أخذ ستيفن يسير نحو بيته . وبعد فترة وقع بصره على شخص مألوف له ، يسير فى نفس الشارع . فزاد من سرعته ، ثم نادى ، يقول : « راشيل » .

استدارت تلك المرأة ، فرأى وجهها فى ضوء المصباح الساطع بذلك الشارع .. كان ذلك الوجه هادئا ذا عينين لطيفتين ، وشعر أسود ، وتبلغ صاحبته من العمر حوالى خمسا وثلاثين سنة .

فقال ستيفن : « جئت مبكرة ، فى هذه الليلة ، ياراشيل » .

قالت : « لا أعرف أبدا متى أترك العمل . ومن الخير لنا ، ألا نرى معا . نحن صديقان قديمان ، ولكن ذلك من الأفضل » .

قال : « ولكنه يشق على ، ياراشيل » .

قالت : « حاول ألا تفكر هذا التفكير » .

قال : « حاولت ، ولكن لم أفلح . أنت على حق . فقد يتقول الناس عنا . كلمتك قانون بالنسبة لى » .

سـار ستيفن وراشـيل ، معا ، مسافة ما ، ولما اقتربا من بيتيهما ، توقفت راشيل عند ناصية شارعها ، ووضعت يدها فى يده ، وتمنت له ليلة سعيدة .

قال :« عمى مساء ، يا عزيزتى راشيل،عمى مساء» .

مشى ستيفن فى طريقه الى بيته ، وكان فى شـارع ضيق ، فوق حانوت صغير . فصعد السلم الى حجرته ، وكانت مظلمة . ولكنه حمل شمعة ليضعها فوق نضد . وبينما هو يفعل ذلك . كاد يقع فوق شىء على الأرض .

أبصر على الأرض امرأة قذرة الملابس، قبيحة المنظر، لعبت الخمر برأسها . كانت زوجته .

صاح سـتيفن ، وهو يتراجع الى الخلف ، فقال : « يالرحمة السماء ! هل رجعت ثانية ؟ »

قالت : « نعم ، رجعت ثانيـة . أنا أرجع دائما . ولماذا لا أرجع ؟ »

نهضت تلك الزوجة ، وارتمت على السرير ، وسرعان ما استغرقت فى النوم . بينما استلقى ستيفن على كرسى ، ولم يتحرك الا مرة واحدة ، فى تلك الليلة ، ليضع غطاء فوق جسم زوجته .

الباب الحادى عشر

لا طريق للخروج

ذهب ستيفن فى فترة ساعة الغداء من اليوم التالى ، لزيارة مخدومه المستر باوندرباى • وكان هذا الأخير يتناول طعام الغداء مع مدبرة بيته مسز سپارسيت •

فقال المستر باوندرباى : « ما خطبك الآن ياستيفن؟»

انحنى ستيفن ، وقبعته فى يده •

فسأله المستر باوندرباى بقوله : « هل جئت لتقدم شكوى ؟ »

قال : « لا ، ياسيدى » •

أزاح المستر باوندرباى طبقه بعيدا عنه : وانحنى الى الخلف ، وقال : « اذا ، فأخبرنى بسرعة ، لماذا أتيت » •

فقال : « جئت ، ياسيدى ، طلبا لنصيحتك • أريدها بشدة •• تزوجت منذ تسع عشرة سنة ، وكانت فتاة صغيرة السن وجميلة • وكنت رقيقا معها • ولكن الأمور ساءت الآن » •

فقال المستر باوندرباى : « سمعت كل هذا من قبل •

وأنها أدمنت شرب الخمر ، وتوقفت عن العمل ، وباعت الأثاث والملابس » ٠

فقال ستيفن : « فصبرت عليها ٠ وعدة مرات ذهبت الى البيت لأجد كل ما أملكه قد ذهب وأنها أنفقت النقود على الخمر ٠ وأراها راقدة على الأرض فاقدة الوعى » ٠

وبينما ستيفن يتكلم ، تعمقت كل تجعيدة فى وجهه لتبين ما يقاسيه من محن ، فقال :

« ظللت ، مدة خمس سنوات ، أدفع لها نفقة لتظل بعيدة عنى ٠ ولكنى ذهبت ، فى الليلة الماضية ، فوجدتها راقدة على الأرض » ٠

فقال المستر باوندرباى : « أعرف كل هذا ، قبل الآن ، باستثناء الجزء الأخير ٠ انه أمر سيىء ما كان يحق لك أن تتزوجها ، اطلاقا » ٠

فقال ستيفن : « جئت اليك ، ياسيدى لتخبرنى كيف يمكننى التخلص منها » ٠

فقال المستر باوندرباى ، وهو ينهض من مقعده : « ماذا تعنى ؟ عن أى شىء تتكلم ٠ لقد أخذتها للسراء وللضراء » ٠

قال : « صادقت أفضل امرأة موجودة فى الدنيا ٠ ولولاها ، ولولا خاطرها ، لجننت » ٠

رفعت مسز سپارسيت رأسها تنظر الى فوق ، وقالت: « أخشى أنه يريد التحرر ليتزوج هذه المرأة التى يتكلم عنها ، يا مستر باوندرباى » ٠

فقال ستيفن : « هو كذلك ٠ قرأت فى الصحف أن العظماء والأغنيـــاء لا يرتبطون معا الى الأبد ٠ ويمكنهم التحرر من زيجاتهم التعيسة ليتزوجوا مرة ثانية ٠ يجب أن أتحرر من هذه المرأة ٠ وأريد أن أعرف كيف يتم لى ذلك » ٠

فقال المستر باوندرباى : « لا سبيل لخروجك من هذا المـــأزق » ٠

قال : « ان هربت منها ، فهل هناك قانون يعاقبنى ؟ »

« طبعا ، هناك قانون يعاقبك » ٠

« وان تزوجت المـــرأة الأخـرى ، فهل هناك قانون يعاقبنى ؟ »

« طبعا ، هناك قانون لذلك » ٠

فقال ستيفن : « والآن ، أستحلفك باسم الرب ، أن تدلنى على قانون يساعدنى ! » ٠

فقال المستر باوندرباى : « هنـــاك قانون يمكن أن يساعدك ، ولكنه يكلفك الكثير من النقود » ٠

قال : « كـم ؟ »

« أظنه يكلفك من ألف الى ألف وخمسمائة جنيه ، أو ضعف ذلك » .

فقال ستيفن : « أما من قانون آخر ؟ »

فأجاب المستر باوندرباى ، بقوله : « بالتأكيـــد ، لا يوجد قانون آخر » .

فقال ستيفن ، وقد امتقع لونه بشدة : « لماذا ، اذن ، ياسيدى ! كل شىء صعب ومتعب . الحياة صعبة ومتعبة . وكلما أسرع الى حتفى كان أفضل » .

قال ستيفن قوله هذا وأحنى اليهما رأسه ، وخرج من الحجرة .

الباب الثانى عشر

المرأة العجوز

هبط ستيفن درجتى السلم البيضاوين ، وأقفل الباب الكبير لبيت المستر باوندرباى ، وعبر الشارع وعيناه مثبتتان على الأرض فى حزن عميق فاذا به يحس بشخص يلمس ذراعه .

ذلك الشخص امرأة عجوز ، طويلة القامة ، مازالت تحتفظ بمسحة من الجمال ، نظيفة الثياب البسيطة ، وحذاؤها ملوث بوحل الريف . من الجلى أنها قطعت مسافة ما .

قالت : « معذرة ، ياسيدى ! ألم أبصرك تخرج من بيت ذلك الرجل العظيم ؟ » وأشارت الى بيت المستر باوندرباى . ثم استطردت تقول : « هل رأيته ؟ »

« نعم ، رأيته » .

« وكيف رأيت منظره ؟ هل يوحى منظره بخير ؟ »

« نعم ، يبدو فى صحة جيدة جدا » .

فقالت المرأة العجوز ، وقد اقتنعت تماما : شكرا لك ، سيدى ! أشكرك » .

فسألها ستيفن عما اذا كانت قد جاءت من الريف .

قالت : « نعم ، جئت بالقطار ، فى هذا الصباح ، من مسافة ستين كيلو مترا . وسأقطع نفس المسافة ، عائدة فى هذا المساء . أنفق مدخراتى هكذا ، مرة فى كل سنة ، أجىء لرؤيته ذلك السيد ونظرت مرة أخرى الى بيت المستر باوندرباى .

استأنفت هذه السيدة كلامها ، فقالت : « لم يخرج من بيته ، فى هذه السنة ، وأنا هنا . ولكنى رأيتك ، وأنت رأيته . ويجب أن أكتفى بذلك . هل أنت ذاهب الى العمل ؟ »

قال : « نعم : فأنا أعمل بمصنع المستر باوندرباى ».

قالت : « هل أنت سعيد فى عملك ؟ منذ كم من الوقت ، وأنت تعمل عنده ؟ »

« منذ حوالى اثنتى عشرة سنة » .

قالت : « يجب أن أقبل اليد التى عملت فى هذا المصنع الجميل ، مدة اثنتى عشرة سنة » .

قالت هذا ، ورفعت يده الى شفتيها .

بعد ذلك ، بينما ستيفن يعمل فى المصنع ، ألقى نظرة الى خارج النافذة ، فأبصر المرأة العجوز ، واقفة بالخارج ، تنظر الى المبنى ، معجبة به ، ثم انصرفت .

الباب الثالث عشر

راشـــيل

قبل أن يذهب ستيفن الى بيته ، فى تلك الليـــلة ، ظل يتجول فى الشوارع لفترة ما . وتوقع أن يجد زوجته بالمنزل تصيح بوحشية . وعندما اقترب من حجرته ، أبصر نورا فى النافذة .

وجد الهدوء والسلام فى الداخل . وكانت راشـــيل هناك ، جالســـة بجانب السرير الذى ترقـــد فوقه زوجة ستيفن . وقد نظفت الحجرة ، وأوقدت نارا ، بينما ترقد زوجته على السرير فى هدوء .

فقالت راشـيل : « يسرنى أنك جئت ، أخيـــرا ، ياستيفن . لقد تأخرت جدا » .

قال : « كنت أتجول جيئة وذهابا » .

قالت : « هذا هو ما جال بفكرى ، ولكن هذه الليلة ليست لمثل هذا التجول . فالمطـــر يهطل وابلا ، وقامت الريح شـديدة » .

الريح ؟ هذا حقيقى . كانت تهب عاصفة وترعد داخل

المدخنة . فكيف يبقى ستيفن خارج البيت فى مثل هـــذه الريح ، ولا يعلم أنها تهب ؟

قالت راشيل : « كنت هنا ، مرة ، قبل اليـــوم ، ياستيفن . استدعتنى صاحبة بيتك ، فى وقت العشـــاء وقالت ان زوجتك مريضة .. كانت زوجتك تعمـــل معى ونحن فتاتان صغيرتان ، وكنت صـــديقتها . لذا حضرت لأعمل القليل الذى يمكننى عمله .. حاولت أن تنتحر فى هذا الصباح » .

سار ستيفن ببطء نحو كرسى ، وجلس ، وهو مطأطىء الرأس ، وراشيل تعتنى بالجروح التى فى رقبة زوجته . فوضعت قطعة من الشاش فى حوض ، وسكبت فى الحوض سائلا من زجاجة ، ثم وضعت قطعة الشاش ، برفق ، فوق الجروح . وكان هناك نضد صغير الى جانب السرير ، فوقه قارورتان احداهما التى سكبت راشيل منها السائل .

لم تكن الزجاجة بعيدة عن ستيفن . واذ كان يتابع يدى راشيل بعينيه ، أمكنه أن يقرأ ما كتب عليها بحروف كبيرة « سم . لا تشرب » . فامتقع لونه جدا ، وتملكه رعب فجائى .

فقالت راشيل ، فى هدوء :

« سأبقى هنا ، ياستيفن ، حتى تدق الأجراس معلنة

الساعة الثالثة . يجب أن أغسل جروحها ، مرة ثانية ، فى ذلك الوقت . وبعدئذ يمكن تركها حتى الصباح » .

فقال ستيفن : « ولكن ، ماذا عن راحتك فى هذه الليلة ؟ عليك أن تعملى بالمصنع غدا » .

قالت : « نمت جيدا ، فى الليلة الماضية ، وبوسعى أن أبقى متيقظة لعدة ليال . أنت الذى بحاجة الى الراحة. لونك ممتقع جدا ويبدو عليك التعب . حاول أن تنام على ذلك الكرسى . بينما أظل أنا يقظى » .

سمع ستيفن قصف الريح تزمجر فى الخارج وبدا كأن احساساته الغاضبة ، تحاول النيل منه . ولكن راشيل عملت على تهدئة هذه الاحساسات . وكان يثق فى أن بمقدورها أن تحميه من نفسه .

قالت راشيل : « انها لا تعرفنى ، يا ستيفن . انها مريضة جدا ، فعندما تثوب الى رشدها ، مرة أخرى ، أكون قد فعلت ما فى مكنتى ، دون أن تعرف اطلاقا .. ال الطبيب انها ستعود الى عقلها السليم غدا » .

وقفت عينا ستيفن ، مرة أخرى ، عند القارورة ذات البطاقة المكتوب عليها « سم » فارتجف جسمه ، وجعل أعضاءه ترتعش . فقالت راشيل : « انك لترتعد بردا وبللا ، يا ستيفن » .

قال : « كلا . فقد أصـــابنى رعب ، وأنا قادم الى البيت ، عندما كنت أفكر . عندما كنت ..... » .

قالت : « أيا ستيفن ! » وهمت بأن تذهب نحوه ، الا أن ذراعه امتدت لتوقفها .

قال : « أرجوك ألا تقبلى نحـــوى . دعينى أراك جالسة بجانب السرير ، طيبة ومســـامحة . دعينى أراك مثلما رأيتك عندما جئت الى هنا » .

ارتعد ستيفن مرة أخرى ، وارتمى فوق كرسيه .

فقالت راشيل : « عندما تتحسن حالتها ، ياستيفن ، فمن المنتظر أن تتركك وشأنك ، مرة أخرى . ولن تصيبك بأى أذى بعد ذلك .. والآن ، سألزم الهدوء ، اذ أريدك أن تنــام » .

أغمض ســتيفن عينيه ، وأخذ يصغى الى زمجرة الريح . وبالتدريج ، تحول الى عمـــل آلاته بالمصـنع ، والأصوات التى سمعها طوال ذلك النهار . ثم استغرق فى النـــوم .

بعد لحظة ، أيقظه صوت الريح ، وكان المطر يحدث صـوتا وهو يسقط على أسطح البيوت . وانكمشت الخطوات الكبرى ، التى تحرك بها فى حلمه ، الى جدران حجرته الأربعة . وكانت كما هى ، باستثناء أن النار انطفأت ..



ارتعد ستيفن مرة أخرى ، وارتمى
فوق كرسيه .

وبدا أن راشيل نامت فوق مقعدها بجانب السرير . وبقى النضد فى نفس موضعه ، وفوقه الزجاجتان . احداهما زجاجة السم .

خيل الى ستيفن ، فجأة ، أنه رأى الستار الذى فوق السرير يتحرك . فنظر الى فوق ، مرة أخرى ، وتأكد من أنه يتحرك فعلا . أبصر يدا تتحرك وتمتد . وبعد ذلك ، جذبت المرأة التى فوق السرير ، الستار جانبا ، وجلست . وجالت عيناها فيما حولها . يبـــدو أنها لم تبصر الناس الموجودين فى الحجرة . ثم توقفت عيناها عند النضـــد والزجاجتين اللتين فوقه .

أخذت قدحا ، ونظرت الى القارورتين ، ثم أمسكت القارورة التى فيها الموت السريع الأكيد ، ونزعت سدادتها . وبينما عيناها تراقبان راشيل ، سكبت محتويات الزجاجة ، ببطء ، وقربت السـائل من شــفتيها . وعندئذ ماهى الا لحظة ، حتى لا يمكن اسعافها .

هبت راشيل واقفة ، وهى تصيح . فناضلت هـــذه المرأة المتوحشة ، وضربت راشيل ، وأمسكتها من شعرها . ولكن راشيل أخذت القدح من يدها .

نهض ستيفن من فوق كرسـيه ، وقال : ياراشيل ، هل أنا أمشى أم أحلم ؟ »

قالت : « كل شىء على ما يرام ، ياستيفن . لقـــد نعست ، أنا نفسى ، والساعة الآن حوالى الثالثة .. اصغ . انى لأسمع دقات ساعة الكنيسة الآن » .

نقلت الريح أصوات ســاعة الكنيســـة الى النافذة ، فأصغيا اليها وهى تعلن الثالثة . فنظر ســتيفن الى راشيل، فوجدها ممتقعة اللون ، ولاحظ عدم ترتيب شـــعرها ، وآثارا حمـــــراء لأصابع على جبهتهـــا فأيقن من أنه كان متيقظا . وكانت راشيل لاتزال ممسكة بالقدح فى يدها ، فقالت بهدوء :

« ظننتها حـــوالى الثالثة » .

سكبت راشيل السائل فى الحوض ، ووضـــعت فيه قطعة الشاش ، وقالت : « لقد هدأت الآن ، فيمكننى غسل الجــــروح » .

غسلت راشــيل جروح المرأة المريضة بالسائل ، ثم سكبت الباقى من الحوض ، فوق النار ، وكسرت الزجاجة .

ارتدت راشــيل معطفها ، واســـتعدت للخروج فى الريح والمطر .

فقال ستيفين :« اسمحى لى بأن أسير معك ياراشيل» .

قالت : « كلا ، فانها مسافة دقيقة على الأقدام الى بيـــتى » .

فقال بصوت منخفض وهما يســيران نحو الباب :
« أليست خائفة من أن تتركينى وحدى معها ؟ »

وبينما هى تنظر اليه وتقول : « ياستيفن ! » جثـا على ركبته أمامها ، وقال :

« أنت ملاك ، يا راشـيل . جئت الى البيت وقـد استبد بى اليأس . وليس بمقدور أى انسان أن يساعدنى ، ثم رأيت زجاجة السم على النضد .. لا أحد يعرف ماذا كنت سأفعل بنفسى ، أو بها ، أو بكلينا » .

قالت : « كف عن الكلام ! » ووضعت كلتا يديها على فمه لتمنعه أن يتكلم . ووجهها مملوء بالرعب . ثم ألقت عليه تحية المساء بصوت متهدج ، وخرجت الى الشارع .

هبت الريح من الناحية التى سيبزغ منها النهار . ومازالت تهب بعنف ، وجعلت السماء صافية أمامها . وكف المطـر عن الانهمار ، وذهـــب الى مكان آخر . وتألقت النجوم فى السماء ، ووقف ستيفن عارى الرأس فى الطريق يراقب اختفاء راشيل السريع .

وكما هى النجوم المتألقــة بالنســبة الى الشـــمعة الصغيرة ، التى فى النافذة ، كذلك كانت راشيل بالنسبة الى هذا الرجل ، فى أحداث حياته المحزنة .

الباب الرابع عشر

الصانع العظيم

سار الوقت فى كوكتاون مثلما تسير آلاتها . فكم من مواد صنعت ، وكم من طاقات استعملت ، وكم من أموال جمعت !

كذلك طال الوقت مثلما زاد طول ثوماس الصغير ثلاثين سنتيمترا عما لاحظه أبوه آخر مرة .

فقال المستر جرادجرايند : « حان الوقت الذى يجب أن يذهب فيه ثوماس الى مصرف باوندرباى » .

وهكذا مرر الوقت ثوماس الصغير الى مصرف باوندرباى ، وجعله يعيش فى بيته .

كذلك مرر الوقت سيسى خلال مصنعه (أى مصنع الوقت) وجعلها فتاة جميلة جدا ، بحق .

قال المستر جرادجرايند : « أخشى ، يا چوب ، أن يكون تقدمك فى المدرسة مثبطا للعزيمة . فلم تحصلى على كمية المعارف المتوقعة » .

قالت : « آسفة ، ياسيدى . أعرف أن هذا صحيح جدا . ولكنى حاولت جاهدة ، وفكرت أحيانا فى أننى

حاولت أن أتعلم الكثير جدا بما لا تحمـــله طاقتى . ولو سمح لى بأن أتعلم أقل من ذلك قليلا ، فلربما فعلت ماهو أفضـــل » .

فقال المستر جرادجرايند : « كلا ، كلا ، لا تبكى يا چوب . أنت امرأة صغيرة رقيقة وطيبة ، ومفيدة لمســز جرادجرايند ، ومســـاعدة فى الأسرة . لذا آمل فى أن تجعلى نفسك سعيدة فى بيتنا » .

فقالت سيسى معترفة بالجميل : « شكرا عظيما لك ، ياسيدى » . ولكنها مازالت تفكر فى أن والدها سيعود فى يوم مـــا .

فى كل هذه الأثناء ، كانت لويزا تمر هادئة وصامتة . فلما لاحظ أبوها ، مـــرة أخرى ، أنها صـــارت امـــرأة صغيرة ، قال :

« يا عزيزتى لويزا .. يجب أن أتحدث معك على أنفراد ،وفى جدية . تعالى الى فى حجرتى بعد أن تتناولى طعام الإفطار ، غدا . فهل تسمحين بهذا ؟ »

« نعم ، يا أبت » .

قال : « يداك باردتان . فهل تشعرين بمرض ؟ »

« أنا على مايرام من الصحة ، يا أبت » .

نظرت لويزا الى أبيها مـــرة أخـــرى ، وابتسمت

بطريقتها الغريبة ، وقالت : « أنا سعيدة ومبتهجة ، مثلما اعتدت أن أكون » .

قبل المستر جرادجرايند ابنته ، وانصرف .

أطل أخوها من الباب ، وقال : « هل أنت هنا ، يا لويزا ؟ » وكان ، فى ذلك الوقت ، شابا أنيقا ، ولكنه لم يكن جذاب المنظر جدا .

نهضت لويزا من على مقعـــدها ، وطـوقت أخاها بذراعيها ، وقالت : « يا عزيزى توم ! كم من الوقت مر ، ولم تأت لترانى ! »

قال : « كنت مشغولا فى الأمسيات ، يا لو . وبالنهار يشغلنى العجوز باوندرباى ، بالعمل .. وعلى فكرة ، هل قال لك أبونا شيئا خاصا ، يا لو ؟ »

نظر هذا الشاب الى وجه أخته بمتعة أعظم مما اعتاد أن ينظر اليها من قبل ، وطوق وســـطها بذراعه وقال : « أراك مولعة جدا بى ، يا لو .. أليس كذلك ؟ »

قالت : « بلى . الواقع أننى مولعة جدا بك ، يا توم ، ولو أنك لا تأتى كثيرا لترانى » .

قال : « حسنا ، يا أختاه ! وعندما تقولين هــذا ، فأنت تقتربين كثيرا من أفكارى . الواقع أنه من الممكن أن نكون معا مرات أكثر . تصنعين الكثير من الخير لى ،

ان فكرت فى أن تؤدى لى خدمة » ثم توقف عن الكلام ونظر الى وجه أخته المفكر ، ولكنه لم يفهم منه شيئا . فقبلها ، فبادلته التقبيل وهى لاتزال تنظر الى الوطيس .

استطرد ثوماس الصغير ، يقول : « لا أستطيع البقاء هنا ، الآن . لا تنسى أنك مولعة بى ! »

قالت : « لن أنسى ، يا عزيزى توم » .

انصرف توم ، ووقفت لويزا عند الشباك تنظر الى نيران كوكتاون ، وهى تصغى الى وقع أقدام أخيها وهو ينصـــرف .

الباب الخامس عشر

الأب وابنتـــه

يوجد بحجرة المستر جرادجرايند ساعة دقاقة كبيرة، يمكنك سماع صوتها وهى تعمل ·· جلســـت لويزا بجانب النافذة قــرب مـــائدة أبيها · فوقع بصرها على مداخن كوكتاون العالية ، والدخان يتصاعد منها كثيفا فيملأ الجو بلون أسود يبعث على الاكتئاب ·

قال الأب : « يا عـــزيزتى لويـــزا · لدى شىء بالغ الأهمية ، أود أن أقـــوله لك ، كما أخبرتك فى الليـــلة الماضية ·· لقد تدربت وتعلمت جيدا ، ولى ثقة تامة فى احساسك المرهف الطيب » ·

انتظر الوالد أن تتكلم ابنته ، ولكنها لم تنطق بكلمة واحدة · فقال :

« يا عزيزتى لويزا · يريد شخص ما أن يتزوجك · وهأنتذا قد تسلمت اقتراحا بالزواج ، فماذا تقولين ؟ »

انتظر المســتر جرادجرايند ، مرة أخــرى ، أن ترد ابنته على سؤاله ، ولكنها لم تجب بشىء فى هـــذه المرة

أيضا . فأدهش هذا أباها ، فكرر قوله : « يريد شخص أن يتزوجك ، يا عزيزتى » .

قالت : « أنا أسمعك ، يا أبى . أنا مصـــغية الى ما تقــول » .

أحس المستر جرادجرايند بالانزعاج ، ولكنه استطرد يقـــول :

« أخبرنى المستر باوندرباى ، بأنه يريد أن يقدم لك يده للزواج . وقد لاحظ تقدمك بمتعة ، وكله أمل ، طيلة وقت طويل ، أن تأتى الفرصـــة التى يطلب فيها يدك ، للزواج . ويأمل كثيرا فى أن تولى طلبه هذا ، اعتبارك الموافق » .

ساد السكون بين الأب وابنته . وبدا صوت الساعة عاليا جدا ، ولاح الدخان البعيد شديد السواد وكثيفا جدا .

تكلمت لويزا ، فقالت : « يا أبتاه أتعتقد أننى أحب المستر باوندرباى ؟ »

شعر المستر جرادجرايند بالقلق الشـــديد ، فقال : « لا يمكننى الجزم بذلك ، ياطلفتى » .

فاستطردت لويزا ، تقول بنفس الصـــوت السابق : « أى أبت ! هل تطلب منى أن أحب المستر باوندرباى ؟ »

قال : « كلا ، كلا ، ياعـــزيزتى لويزا . لا أطلب منك شيئا كهذا » .

فاستأنفت لويزا كلامها ، تقول : « هـــل يطلب المستر باوندرباى منى أن أحبه ؟ »

فقال الأب : « الحقيقة ، ياعزيزتى ، أنه من الصعب الاجابة على سؤالك » .

قالت : « هــل من الصـــعب الاجـــابة بنعم ، أو لا .. يا أبى ؟ »

أجاب الوالد بقوله : « نعم ، هذا أكيد يا عزيزتى ، لأن الرد يتوقف على المعنى الذى نســـنده الى السؤال . والآن ،أقول لك ، ان المستر باوندرباى لا يطلب منك شيئا خياليا . وربما كان استعمال كلمة (حب) خاطئا قليـــلا » .

قالت : « وبماذا تنصحنى أن أستعمل بدلا من كلمة (حب) ، يا أبى ؟ »

قال : « يبدو لى ، يا لويزا ، أنه ما من كلمة يمكن أن تكون أوضح منها . وموضوع الحقيقة الذى بوسعك أن تفكرى فيه ، فى قرارة نفسك ، هو ، هل يطلب منى المستر باوندرباى ، أن أتزوجه ؟ نعم ، هو يطلب ذلك . والسؤال الوحيد ، الباقى بعد ذلك ، هو : هل أتزوجه ؟ لا أظن ، ياعزيزتى لويزا ، أن هناك شيئا سيكون أوضح من ذلك » .

أخذت لويزا تكرر قولها ببطء : « هـــل أتزوجه ؟ هل أتزوجه ؟ »

فقال المستر جرادجرايند : « نعم ، بالضبط ، وهو مقبول بالنسبة لى ، بصفتى والدك ، ياعزيزتى لويزا . أعرف أنك لن تنظرى الى هـــذا الســـؤال بعقل وتفكير كثيرات من النساء » .

قالت : « لن أنظر اليه هكذا ، يا أبى » .

قال : « أتركك الآن لتفكرى فى هذا الأمر فى هدوء وعلى مهل » .

سحبت لويزا عينيها من على أبيها ، وجلست مدة طويلة تنظر نحو مداخن البلدة ، ثم قالت أخيرا :

« يطلب منى المســـتر باوندرباى ، أن أتزوجـــه ، والسؤال الذى أسأل به نفسى ، هو هل أتزوجه ؟ »

« بالتأكيد ، ياعزيزتى » .

قالت : « ليكن هكذا . ماذا يهم ؟ فبما أن المســـتر باوندرباى يريد أن يتزوجنى ، فأنا موافقة على طلبه .. أخبره ، يا أبى ، فى الوقت الذى تراه ملائما ، بأن هذا هو ردى . كرره حرفا بحرف ، ان أمكنك ، لأننى أريده أن يعرف نص ما قلته » .

فقال الأب : « هذا صحيح تماما ، ياعزيزتى . ولكى أكون واقعيا ، فســـأفعل ما تطلبينه . هل لك رغبـــات بخصوص موعد الزواج ؟ »

قالت : « كلا ، يا أبت . فما أهمية هذا ؟ »

تاثر المستر جرادجرايند بنجاحه أعظم التاثر ، وسر سرورا بالغا ، فقال :

« أشـــكرك ، يا عزيزتى لويــزا ، اذ عوضتنى عن عنايتى بك . والآن ، قبلينى ، يا أبنتى » .

قبلت لويزا أباها ، فأمسكها من يدها ، وذهبا معا الى حجرة الجلوس . وكانت بها مسز جرادجرايند وسيسى » .

فقال المستر جرادجرايند : « يامســـز جرادجرايند اسمحى لى بأن أقدم لك مسز باوندرباى » .

فقالت مسز جرادجرايند : « مرحى ! اذن ، فقــد سويت الموضوع : أتمنى أن تظل صحتك جيدة ، يا لويزا . أتمنى ألا تمرضى مثلما مرضت أنا بعد زواجى . لابد أن أقبلك قبلة التهنئة . ولكن لا تلمسى كتفى اليمنى . أشعر بأن هناك شيئا يسرى خلالها ويؤلمنى طول اليوم » .

نظرت سيسى الى لويزا ، فى عجب ، وفى اشفاق ، وفى حزن . عرفت لويزا هذا ، دون أن تنظر مباشرة الى سـيسى . ومنذ تلك اللحظة ، ولويزا فخـــورة وباردة ، وتنظر الى سيسى من بعيد . لقد تغيرت نحوها ، تماما » .



قبلت لويزا أباها ، فأمسكها من يدها ، وذهبا معا الى حجرة الجلوس • وكانت بها مسز جرادجرايند وسيسى •

الباب السادس عشر

الزوج والزوجة

عندما سمع المستر باوندرباى بما أسعده ، ساوره القلق من أجل مسز سپارسيت . فماذا يقول لمدبرة بيته ؟ ولما جاء المساء ، قرر أن يخبرها . فاشترى زجاجة أملاح مضادة للاغماء ، احتياطا لما اذا كان سيغمى على مسز سپارسيت . وعمل ترتيبه أن يمكن نزع سدادة الزجاجة بسهولة ، اذا اقتضى الأمر استعمالها . ثم استدعى مسز سپارسيت . فلما جاءت وجلست ، قال لها :

«يامدام ! يامسز سپارسيت ! أنت من كريمات العقائل ، بمولدك وبتربيتك . كما أنك سيدة سامية الأخلاق والمشاعر» .

قالت : « ياسيدى : كثيرا ما وقرتنى بأمثال هذه العبارات الدالة على رأيك الطيب » .

قال : « يامدام ! يامسز سپارسيت ! سأخبرك بما يدهشك » .

فقالت فى هدوء : « نعم ، ياسيدى ! »

قال : « سأتزوج ابنة المستر جرادجرايند » .

قالت : « أهنئك ، ياسيدى ، وأتمنى لك السعادة يا مستر باوندرباى . الحقيقة أننى أتمنى لك السعادة من كل قلبى ، ياسيدى » .

قالت ذلك بلهجة الاشفاق ، حتى دهش المستر باوندرباى . فوضع السدادة باحكام فى عنق الزجاجة . ثم وضع زجاجة الأملاح فى جيبه ، وقال فى نفسه : لعنة الله على هذه المرأة اذ تستقبل هذا النبأ بمثل هذه الطريقة». ثم قال بصوت مرتفع : « أنا مدين لك بالشكر الجزيل ، يا مسز سپارسيت ، وآمل فى أن أظل مدينا به » .

ابتهجت مسز سپارسيت من ذلك الاطراء والثناء ، فقالت : « هل أنت مدين لى بالشكر ، ياسيدى ؟ من الطبيعى أن تشكرنى .. طبعا تشكرنى » .

مرت فترة صمت حرجة ، ظلت مسز سپارسيت خلالها تعمل بالخياطة .

فقال المستر باوندرباى : « لا حاجة بك الى أن تتركى خدمتى ، يامسز سپارسيت ، سأخصص لك مقرا بالمصرف تكونين مدبرته .. سيكون لك فيه حجراتك الخاصة ، وخادمة ترعى شئونك ، وستجدينه مريحا جدا » .

فقالت مسز سپارسيت : « لا تقل أكثر من هذا ، ياسيدى . أنا أقبل عرضك شاكرة ، وأتمنى أن تكون الآنسة جرادجرايند هى كل ما تحتاج اليه وتستحقه » .

لم تتأثر مسز سپارسيت بذلك الموقف ، بـــل كانت مؤدبة ومبتهجة ولها آمال ٠ ولكن المستر باوندرباى ، كان يعرف أنها تشفق عليه ٠

حدد موعد الزواج ، بأن يكون بعد ثمانية أسابيع ٠ وأخذ المستر باوندرباى يذهب فى كـل مســاء الى ستون لودچ ، لمجالسة لويزا ، وصنع الحب فى تلك المناسبات فى صورة هدايا ومجوهرات ٠ وطوال مـــدة الخطوبة ، بدا الحب فى مظهر صناعى ٠ صـــنعت الملابس والقفازات ، والكعك ٠ كان الموضوع حقيقة ، من أوله الى آخره ، ولم يكن به أى مظهر غرامى ٠٠٠ وبعد ذلك تزوجا فى اليوم

الجزء الثانى

المحصول

الباب الأول

أعمال المصرف

المصرف فى كوكتاون عبارة عن بيت ضخم مبنى بالطوب الأحمر ، أكبر قليلا من بيت المستر باوندرباى ٠٠ جلست مسز سپارسيت فى حجرتها بالمصرف ، التى كانت تستعملها بعد الظهر ، عقب انتهاء ساعات العمل ٠٠ وكانت فى ذلك الوقت هى المسئولة عن سلامة جميع مبانى المصرف ، والخزائن بما فيها من نقود ٠ كما كان هناك ، أيضا ، شاب يحرس خزانة حفظ الأشياء الثمينة ٠ فأعدت الخادمة صينية الشاى لمسز سپارسيت ، أحضرها اليها ذلك الشاب بداخل الحجرة ٠

فقالت مسز سپارسيت : « أشكرك يا بيتزر » ٠

فرد عليها الشاب بقوله : « شكرا ، يامدام » ٠ وبيتزر هذا ، هو الغلام الذى عرف الحصان بمهارة فى المدرسة

منذ سنوات . ومازال أبيض الشعر والبشرة مثلما كان فى أيام المدرسة .

سألت مسز سپارسيت ، بيتزر بقولها : « هل كل شىء فى أمان ، يا بيتزر ؟ »

قال : « كل شىء مقفل ، يامدام » .

فقالت وهى تصب الشاى فى القدح : « ما الأخبار ، اليوم ؟ هل من أحداث ؟ »

« أستطيع القول ، يامدام ، بأننى لم أسمع شيئا بعينـــه » .

ولما كان ذلك الوقت ، هو الفترة التى يتحدث فيها مع مسز سپارسيت ، عن الأمور السرية ، تظاهر بأنه يرتب

« كلا . لم يكن العمل كثيرا ، يا مدام » .

قالت : « هل كان اليوم ، كثير العمل ، يابيتزر ؟ »

« كلا . لم يكن العمل كثيرا ، يا مدام » .

قالت : « بالطبع ، الكتبة أمناء ، ويعملون بجـــد واخلاص » .

قال : « نعم ، يامدام . كلهم على ما يـــرام ، مع الاستثناء الوحيد المعتاد » .

يقوم بيتزر بدور الجاســـوس لمســـز سپارسيت فى

المصرف . وفى نظير هذا العمل ، كانت تقدم له هدية فى عيد الميلاد .. وهو شاب ألمعى بالغ النباهة ، وشـــديد الحرص . وعلى يقين من أنه سوف يرتفع فى الحياة . واذ درب عقله بعناية ، لم تكن لديه أية أمور عاطفية . كل أعماله نتيجة حسابات دقيقة .

كرر بيتزر قوله مرة ثانيـــة ، فقال : « كلهم على مايرام ، مع الاستثناء الوحيد المعتاد ، يامدام » .

فقالت مسز سپارسيت ، وهى تشرب الشاى ، وتهز رأسها : « ياللأسف ! »

قال : « انه المستر ثوماس ، يا مدام . أنا أرتاب كثيرا فى المستر ثوماس . لا تعجبنى أساليبه بحال ما » .

فقالت مسز سپارسيت بلهجة الأمر : « هل تتذكر ما قلته لك ، عن عدم ذكر أسماء ؟ »

قال : « عفوا ، يا مدام : هذا صحيح تماما . لقـد مانعت فى ذكر أسماء » .

قالت : « ان قلت ، فردا ما ، استمعت اليك . أما ان قلت ، المستر ثوماس ، فينبغى لك أن تستسمحنى » .

قال : « مع استثناء فرد واحد ، يامدام » .

فقالت مسز سپارسيت : « حسنا ! »

قال : « فرد واحد ، لم يسلك أبدا المسلك اللائق به . انه يتلكأ فى العمل ، وكسلان ، ويبذر نقوده » .

هزت مسز سپارسيت رأسها ، وتأوهت .

استطرد بيتزر كلامه ، فقال : « آمل ، يامدام ، فى ألا يمده صديقه وقريبه بالنقود ، ونحن جميعا نعرف من جيب من تأتى النقود » .

فقالت مسز سپارسيت ، مرة أخـــرى ، « حذار ، يا بيتزر ! »

قال : « ينبغى لنا ، يامدام ، أن نشفق على هـــذا الشخص الذى تكلمت عنه الآن » .

فقالت : « نعم ، يا بيتزر . كنت أشفق عليه دائما من أجل ذلك » .

قال بيتزر ، وقد خفض صوته واقترب منها : « ذلك الشخص الصغير ، يبذر نقوده مثلما يبذرها أى شخص فى هذه البلدة . وانك لتعلمين كم هم مبذرون » .

قالت : « لو حذوا حذوك ، لأحسنوا صنعا !

قال : « شكرا ، يا مدام . لقد أدخـــرت نقودا ، والهدية التى أخذتها منك ، فى عيد الميلاد ، لم أمسها على الاطلاق .. أنا لا أنفق كـــل مرتبى ، رغم ضآلته . فمـا يستطيع أن يعمله أى انسان ، يستطيع غيره أن يعمله » .

فقالت : « نعم ، هذا صحيح ! »

قال : « أتريدين شيئا آخر ، أحضره لك ، يامدام ؟ »

قالت : « لا شىء الآن يابيتزر ، وشكرا » .

أطل بيتزر من النافذة الى الشارع ، والتفت نحـو مسز سپارسيت ، وقال :

« لا أريد ازعاجك ، وأنت تشربين الشاى ، يامدام . ولكن يوجد رجل فى الخارج . ظل ينظر الى هذا الشباك ، مدة دقيقة أو اثنتين . وأظنه سيطرق الباب الأمامى . هل تريدينني أدخله لمقابلتك ، يامدام ؟ »

قالت : « ان رأيت هذا ملائما ، يا بيتزر » .

طرق الغريب الباب ، فهبط بيتزر السلم ليفتحه له . وأزاحت مسز سپارسيت أدوات الشاى جانبا .

جاء بيتزر ، يقول : « الرجل الغريب يريد مقابلتك ، يا سـيدتى » .

كان ذلك الزائر فى حوالى الخامسـة والثلاثين من عمره ، وأنيق المنظر .

فقالت مسز سپارسيت لهذا الزائر : « أعتقد أنك تريد التحدث الى . تفضل بالجلوس ! »

فقال : « شكرا ، ياسيدتى » . ثم سـحب كرسـيا لتجلس عليه مسز سپارسيت ، بينما بقى هـو واقفا الى جانب المائدة ، وقال :

« معى خطاب توصية للمسـتر باوندرباى ، صاحب هذا المصرف » .

نظرت مسز سپارسيت الى هذا الزائر ، فأعجبها حسن هندامه ، ووجدته ذا شعر أسود ، وعينين جـــريئتين ، وصوت عذب جدا .

قال : « سألت عن الطريق الى بيت المستر باوندرباى ، فقادنى أحد الناس الى هذا المصرف . ولكن ، من المؤكد أن المستر باوندرباى ، لا يقيم هنا » .

قالت : « طبعا ، هو لا يقيم هنا ولكن بوسعى أن أعطيك عنوان بيته » .

« شكرا ، ياسيدتى . خطاب التوصية الذى معى من أحد أعضاء البرلمان ، هو مندوب كوكتاون ، واسمه المستر جرادجرايند . التقيت به فى لندن » .

أطلع هذا الغريب ، مســز سپارسيت على خطاب التوصية ، فأعطته عنوان بيت المستر باوندرباى ووصفت له كيفية الذهاب اليه .

فقال الغريب بأدب : « ألف شكر ، يا ســيدتى . من المؤكد أنك تعرفين جيدا صاحب هذا المصرف » .

قالت : « نعم ، أعرفه منذ عشر سنوات .

قال : « أظنه تزوج ابنة المستر جرادجرايند » .

قالت : « نعم » . وفجأة انكمش فمها ، واستطردت تقول : « كان له ذلك الشرف » .

فقال الغريب : « اغفرى لى فضـولى ياسـيدتى أنت تعرفين تلك الأسرة ، وتعرفين العالم • هل عقيلة المستر باوندرباى بارعة الجمال ؟ وكم يبلغ عمرها ؟ هل أربعون أم خمس وثلاثون سنة ؟ »

ضحكت مسز سپارسيت ، وقالت : « لم تبلغ العشرين عندما تزوجت » •

فقال الغريب : « هل هذا حقيقى ؟ انه يدهشنى » • ثم انحنى لها ، وخرج من الحجرة •

وقفت مسز سپارسيت خلف ستائر النافذة ولاحظت ذلك الغريب وهو يسير فى الطريق ، وقد جعل منظره ، وحسن هندامه ، الناس ينظرون اليه •

عندما كانت مسز سپارسيت وحدها ، وهى تتناول وجبة العشـاء ، قالت : « يا لك من غبى ! » فمن كانت تقصد ؟ لم توضح •

الباب الثانى

المستر جيمس هارتهاوس

الغريب الذى زار مسـز سپارسيت ، اسـمه چيمس هارتهاوس James Harthouse . وهو شاب من أسـرة طيبة ، كثير الارتحال ، ولكنه لم يستقر فى أى عمل أو مهنة . التقى ، أخيرا ، مع بعض أعضاء البرلمان فى لندن ، ومن بينهم المستر توماس جرادجرايند .

قرر المستر هارتهاوس أنه يستطيع العمل فى حزب سياسى . فقد كان ماهرا فى الخطابة ، وقـوى التأثير . بوسعه أن يتلو المعلومات والحقائق ، ويتحدث جيدا الى الجموع .

أعتقد المستر جرادجرايند ، أن هذا الشاب يمكن أن يكون ذا فائدة لحزبه . لذا أعطاه خطاب توصية للمستر باوندرباى ، صاحب مصرف كوكتاون .

ما أن تسلم المسـتر باوندرباى خطاب هارتهاوس ، حتى نهض من مجلسه ، ولبس قبعته ، وذهب الى الفندق الذى يقيم فيه ذلك الزائر .

قال : «اسمى چوزياه باوندرباى ، من أهالى كوكتاون ».

الواقع أن مستر هارتهاوس سر كثيرا بمقابلته ٠

فقال باوندرباى : « ليســت كوكتاون ، ياسيدى ، المكان الذى تعودته ٠ سأخبرك شيئا عنها قبل أن نتمادى»٠

شرح المستر باوندرباى ، لهذا الزائر ، أهمية المصانع التى تبدو قذرة المنظر يلوثها الدخان ٠ ثم قال : «ربما تعلم أننى تزوجت ابنة توم جرادجرايند ٠ ويسرنى أن أقدمك اليها لو جئت معى الى البيت » ٠

التقى المستر هارتهاوس ، فى حجرة الاستقبال بمنزل المستر باوندرباى ، المبنى بالطوب الأحمر ، التقى بفتاة بالغة الشهرة وهادئة ومتحفظة ، ولكنها قوية الملاحظة ٠ تبدو باردة ومتكبرة ، غير أنها سامية المشاعر ، جميلة الوجه ، الا أنه عديم الملامح ٠ تجلس شاردة الذهن ٠

وبينما هم يتحدثون ، ســألته لويزا عن معتقداته السـياسية ٠

قال : « أظن ، يامسز باوندرباى ، أن أية مجموعة من الآراء ، تأتى بفائدة طيبة كأية مجموعة آراء أخرى ٠ وتأتى بنفس الضرر الذى تجلبه مجموعة أخرى٠ما سيكون، سيكون ٠ ولكنى سأويد حزب أبيك » ٠

لم تأخذ لويزا فكرة طيبة عن هذا الزائر ٠

صحب المستر باوندرباى هذا الغريب ، لزيارة بعض

الشخصيات البارزة فى كوكتاون ، الذين يمكنهم التصويت لحـــزبهم ٠

أعدت المائدة ، فى المساء ، لأربعة أشخاص ، بيد أن ثلاثة فقط هم الذين جلسوا اليها ٠

راقب مستر هارتهاوس مسز باوندرباى وهى تجلس الى رأس المائدة ، صغيرة الجسم ، رشيقة القوام ، تبدو غير مهتمة بالحجرة ، ولا بما حولها ٠

فقال هارتهاوس ، فى نفسه : « أما من شىء يحرك هذا الوجه ؟ »

نعم ، هناك شىء ٠ وهاهو ، فى شخص جاء ولم يكن من المتوقع مجيئه ٠ اذ جـــاء توم ٠ فتغيرت ملامح لويزا ، بمجرد أن فتح الباب ودخل ٠ فابتسمت ابتسامة عريضة حلوة ، وأمسكت يد توم فى يدها ٠

فقال الزائر فى نفسه : « هل هذا الكلب الصغير هو المخلوق الوحيد الذى تهتم به ؟ »

وأخيرا ، نهض چيمس هارتهاوس ليعود الى فندقه ، وساوره الشك فيما اذا كان بوسعه أن يعرف الطريق اليه ليلا ٠٠ الا أن الكلب الصغير ، قام فى الحال ، وعرض خدماته كدليل ، وخرج مع ذلك الضيف ليريه الطريق ٠

الباب الثالث

الكلب الصغير

عندما وصلا الى الفندق،قال المستر چيمس هاوستون:
« هل تدخن ؟ »

قال توم : « نعم » . وعلى هذا دعاه ذلك الغريب الى الصعود معه الى حجراته بالفندق وأعطاه كمية من التبغ الفاخر ليدخنه . كما قدم له شرابا باردا . ورغم برودته ، كان قويا جدا . فجلس توم فى مقعد بمتاكىء وأسند ظهره ، وأطرى صديقه الجديد .

قال توم : « شكرا ، يامستر هاوستون . وأرجو أن تكون قد توصلت الى ما تريد من المستر باوندرباى ، فى هذه الليلة » .

تكلم توم ، وقد أغمض احدى عينيه ،ونظر بالأخرى، من فوق قدح الويسكي ، نظرة ذات معنى .

ابتسم المستر چيمس هارتهاوس ، ونهض من فوق مقعده ، ووقف ينظر الى توم ، وقال :



تكلم توم ، وقد أغمض احدى عينيه ، ونظر بالأخرى ، من فوق قدح الويسكى ، نظرة ذات معنى .

« يالك من نسيب(١) لطيف ! »

فقال توم : « أظنك تعنى أن تقول : « يالمستر باوندرباى ، من نسيب لطيف ! »

فقال المستر چيمس هارتهاوس : « أنت دقيق الملاحظة ، يا توم » .

سر توم من أن صديقه خاطبه باسمه المختصر ، ولما تمض على صداقتهما مدة طويلة ، وبمثل طريقة قدامى الأصدقاء هذه . ولا سيما بواسطة رجل وسيم الوجه حسن الهندام .

قال توم : « سأبدأ بألا أكون مؤدبا من ناحية العجوز باوندرباى . نحن فى وقت متأخر من هذا اليوم» .

فقال چيمس هارتهاوس : « لا يهمنك وجودى . ولكن احذر الكلام عندما تكون زوجته على مقربة منك . وأنت تعرف ذلك » .

« زوجته ؟ أختى لو ؟ نعم » .

ضحك توم ، وشرب قليلا من الويسكى ، بينما وقف چيمس هارتهاوس ينظر اليه .

---

(١) كلمة Brother-in-Law الانجليزية تأتى بمعنى « زوج الأخت » كما تؤدى معنى : « أخو الزوجة » لذا ترجمت هنا بمعنى « نسيب » التى تؤدى المعنيين فى العربية .

فقال توم : « لم تهتـــم أختى لو بذلك العجــوز باوندرباى » ٠

فقال جيمس هارتهاوس : « لم تهتم ، تؤدى معنى الفعل الماضى ، ونحن فى الزمــن الحاضر الآن ، أليس كـــذلك ؟ »

فقال توم : « الفعل فى الزمن الحاضر (أى المضارع) والفاعل مفرد متكلم ، هو (أنا لا أهتم) ٠ والفعل المضارع والفاعل مفرد مخاطب هو (أنت لا تهتم) والفعل المضارع والفاعل مفرد غائب هو (هو لا يهتم) هذا للمذكر ، أما للمؤنث فهو (هى لا تهتم) » ٠

فقال صديقه : « حسنا ! هذا ممتع جدا ٠ ولكنك لا تعنيــه » ٠

فصاح توم يقول : « ولكننى أعنيه ٠ من المؤكد أننى أعنيه ٠ ولن تقول لى ، يامستر هارتهاوس ، انك تظن أن أختى لو ، تهتم بالعجوز باوندرباى » ٠

فقال جيمس : « يا صديقى العزيز ٠ ماذا أظن عندما أجد زوجين يعيشان فى وئام وأنسجام وسعادة ؟ »

قال : « أنت تعرف أبى ٠ ولا حاجة بك لأن تدهش من أن لو تزوجت العجــوز باوندرباى ٠ لم يكن لها أى عاشق على الاطــلاق ٠ اذ كان أبى فى منتهى الصرامة ٠

وكان بيتنا عبارة عن سجن . فاقترح أبى عليها أن تتزوج العجوز باوندرباى . فأخذته » .

فقال المستر جيمس هارتهاوس : « أختك تعرف واجبها ، مثلما هى جميلة » .

فقال الكلب الصغير : « ما كانت أختى لتعرف واجبها ، لولاى » .

ما كان من المضيف الا أن رفع حاجبيه فاضطر الكلب الصغير ، الى أن يستمر فى كلامه .

قال : « أنا حثثتها . وكانت تعمل أى شىء من أجلى . وهذا لطيف جدا منها » .

فقال هارتسهاوس :«عندما ذهبت الى المصرف مساء أمس لأعرف عنوان بيت المستر باوندرباى، التقيت بسيدة عظيمة عجوز هناك ، تبدو معجبة جدا بأختك » .

فقال توم : « انها الأم سپارسيت . شعورها نحو أختى أكثر من الاعجاب ، على ما أعتقد » . ثم أغمض عينا ، وضرب باصبعه على أنفه عدة مرات ، وأردف يقول : « الأم سپارسيت ، لم تأمل اطلاقا فى أن تتزوج باوندرباى ، عندما كان أعزب . لم تأمل فى هذا أبدا » .

كان للويسكى الذى ظل توم يشربه لفترة من الوقت ، تأثير قوى ، على قواه العقلية ، فاستغرق فى النوم .

استيقظ توم من حلم مزعج ، بركلة من حذاء ٠ ثم سمع صوتا يقول له : « استيقظ ! نحن في وقت متأخر جدا من الليل ، ويجب أن تنصرف » ٠

صحا توم من نومه ، وقال : « نعم ، يجب أن أنصرف الآن » ٠ الواقع ، أنه كان لا يدرى ما يقول ٠ ثم أردف بقوله : « تبغك طيب ٠ ولكنه خفيف » ٠

فقال المضيف : «نعم ، هو خفيف جدا » ٠

فقال توم : « خفيف جدا ٠٠ أين الباب ؟ مســاء الخــير ! »

وجد توم طريقه الى البيت وهو يسير كما لو أن الجو أمامه مشبع بالضــباب ، اذ عب الكثير من ذلك الشراب البــارد ٠

وهكذا ذهب الكلب الصغير الى البيت والى الفراش ٠ ولكنه لو شعر بما فعله ، فى تلك الليلة لتوقف ٠٠ لتوقف وأغرق نفسه فى النهر الأسود ، الذى يجرى خلال كوكتاون٠

الباب الرابع

رجال واخوة

« أيا أصدقائى وزملائى المواطنين ·· يا عبيد الطغيان ذى اليد الحديدية ·· يا أصدقائى وزملائى ·· يا مِن تعانون أقسى ألوان الظلم ·· يا زملائى العمال ، وزملائى الرجال · أقول لكم : لقد حانت الساعة · يجب أن يلتف كل واحد منكم حول الآخر كقوة واحدة متحدة ·· يجب أن نسحق فى التراب أولئك الذين يحتفظون بنا عبيدا ، ويعيشون من عملنا » ·

صفق الحاضرون تصفيقا حادا ، وشرب الخطيب بعض الماء من كوب ؛ وكانت القاعة مزدحمة وجوها حار· ثم استأنف الخطيب سلاكبريدج Slackbridge كلامه ، فقال :

« ولكنني آسف ، يا اخوانى وزملائى ! ماذا نقول لذلك العامل المنشق علينا ؟ ذلك الرجل الذى لن ينضم الينا فى حربنا من أجل الحرية والحق ؟ »

فصاح صوت يقول : « فلنستمع اليه » ·

فقال سلاكبريدچ : « هاهو » ·

انه ستيفن بلاكپول . فصعد هذا الرجل الى المنصة شاحب اللون وبادى التعب .

فقال ستيفن بصوت هادىء واضح : « يا اخوانى ، فكرت فى هذا الموضوع ، يا زملائى العمال ، وأنا أعرف تماما أنكم ستقاطعوننى ولن تتحدثوا معى بعـــد ذلك . ولكنى لا أستطيع الانضمام اليكم » .

فقال رئيس الاجتماع : « فكر فى هذا الأمر مـــرة أخرى ، يا ستيفن بلاكپول ، قبـــل أن يتحاشـــاك جميع أصدقائك وزملائك » .

ولكن ستيفن لم يستطع تغيير رأيه ، فغادر القاعة فى صمت .

وقع ستيفن فى حياة العزلة ، بسهولة . فاذا قابله زملاؤه ، أشاحوا بوجوههم عنه . كان ستيفن هذا ، رجلا هادئا ، ولم يعرف كيف أننا جميعا نحتاج الى نظرة وكلمة من غيرنا من البشر ، وكيف أن كل واحد منا بحاجة الى التآلف والتآزر مع بنى جنسه .

مرت الأيام الأربعـــة الأولى ، على ستيفن طـويلة وثقيلة . لم يلتق خلالها براشيل . وتجنب كل فرصة للالتقاء بها .. انهم الرجال ، وليسوا النســـاء ، الذين أمـــروا بمقاطعته . ولكنه اعتقد أنه ان رؤى مع راشيل ، فربما أساء القوم معاملتها .

ظل ستيفن هادئا وحده لمدة أربعة أيام ، لم يتحدث مع أى انسان ، ولم يتحدث معه أى انسان . ثم حدث بينما كان يغادر عمله ليلا ، أن استوقفه شاب فى الشارع ،وقال له:

« هل اسمك بلاكپول ؟ » وكان ذلك الشاب ذا بشرة زاهية جدا حتى لتحسبها بيضاء ناصعة .

فقال ستيفن : « نعم ! »

ذلك الشاب هو بيتزر . فقال لستيفن : « هل أنت اليد ، الذى يريد العمال جميعا ، ألا يتحدثوا معه ؟ »

فأجاب ستيفن يقول ، مرة أخرى : « نعم ! »

قال : « يريد المستر باوندرباى أن يتكلم معك . وأنت تعرف بيته » .

استدار ستيفن ، ويمم شطر بيت المستر باوندرباى ، الكبير والمبنى بالطوب الأحمر .

الباب الخامس

الرجال والرؤساء

ذهب ستيفن لمقابلة المستر باوندرباى ، الذى كان بحجرة الاستقبال ، فى بيته . وكانت الأسرة ، وقتذاك ، تتناول الشاى . وكان هناك زوجة المستر باوندرباى ، صغيرة السن ، وأخوها ، وشاب جميل أنيق ، من لندن .

وقف ستيفن عند الباب ، بأدب ، ممسكا قبعته فى يده ، وقال :

« فيم تريد أن تتحدث الى ، يا سيدى ؟ »

فقال المستر باوندرباى : « أخبرنى عن نفسك ، وعن اتحاد العمال ذاك » .

فأجاب ستيفن بقوله : « عفوا يا سيدى . ليس لدى ما أقوله عنه » .

استشاط المستر باوندرباى غضبا ، وثار وصار مثل الريح التى أن وقف فى طريقها شىء ، هبت عليه وقهرته .

فقال المستر باوندرباى : « ياهارتهاوس ! هاهى عينة منهم . فعندما كان هذا الرجل هنا ، ذات مرة ، قبل الآن ،

أخبرته بأنه يسير فى الاتجاه الخطأ • وحذرته من صانعى الشغب • وهاهو الآن خائف أن يتكلم عنهم » •

فقال ستيفن : « قلت انه ليس لدى ما أقوله عنهم ، يا سيدى • ولم أقل اننى خائف أن أتكلم »

زاد غضب المستر باوندرباى شيئا فشيئا ، فقال : « هنا رجل من لندن ، وأريده أن يسمع المناقشة بيننا • فمم تشكو ؟ »

قال ستيفن : « لم آت الى هنا لأشكو ، يا سيدى ، بل جئت لأننى استدعيت » •

فقال المستر باوندرباى ، وقد وضع ذراعيه على صدره : « هل تشتكون بطريقة عامة ، أيها الناس ؟ »

تردد ستيفن ، لحظة ، ثم قال : « انظر حول هذه البلدة ، ياسيدى • يجب على الناس أن يعملوا بجد منذ الطفولة الى الشيخوخة ، بدون أى تغيير •• انظر كيف تتحدث عنا ، وتقول دائما اننا مخطئون • هنا شىء خطأ • خطأ تماما » •

فقال المستر باوندرباى : « طبعا ، هو كذلك • والآن ، ربما أمكنك أن تخبر هذا السيد بما ستعمله لتصحيح الخطأ » •

قال : « لست أعرف ، ياسيدى » •

فقال المستر باوندرباى : « سأخبرك بشىء يساعدك . سنقبض على ستة خطباء من أمثال سلاكبريدج » .

هز ستيفن رأسه بجدية .

فقال المستر باوندرباى ، وهو يصيح كالريح العاصفة : « لا تقل اننا لن نستطيع القبض عليهم ، لأننا سنفعل هذا . أكيـــدا » .

أشارت لويزا الى ستيفن لكى يذهـــب نحو الباب ، ولكنه لم يكن سريعا بما فيه الكفاية .

فقال المستر باوندرباى ، وقد اشتدت حمرة وجهه : « قف لحظة ، ياستيفن . أخبرتك ، فى المرة الأخيرة ، التى كنت فيها هنا ، ومعك شكوى . أخبرتك برأيى . والآن أجدك سيىء الطباع . فحتى زملاؤك العمال ، لا يتحدثون معك الآن . لم أفكر ، قط ، فى أن أولئك الأشخاص يمكن أن يكونوا على حق فى أى شىء . ولكنى أتفق معهم الآن . ولن تكون لى بك أية صلة » .

رفع ستيفن عينيـــه ، بسرعة ، الى وجه المســـتر باوندرباى » .

فقال المستر باوندرباى : « يمكنك أن تنهى العمـــل الذى تقوم به ، ثم تذهب الى أى مكان آخر » .

فقال ستيفن : « أنت تعرف جيدا ، ياسيدى ، أننى

ان لم أعمل عندك ، فلن يكون بوسعى أن أجد عملا فى أى مكان آخر » ٠

فأجاب المستر باوندرباى، بقوله : « ما أعرفه أعرفه٠ وما تعرفه أنت تعرفه ٠ ولن أقول شيئا عن هذا الموضوع بعد الآن » ٠

نظر ستيفن بسرعة الى لويزا ، ولكن عينيها كانتا تنظران الى أسفل نحو الأرض ٠ فانصرف ستيفن وهو يئن، وقال بصوت منخفض :

« فلتساعدنا السماء ، جميعا ، فى هذا العالم » ٠

الباب السادس

الرحيل

عندما خرج ستيفن من عند المستر باوندرباى كان الظلام قد خيم على الكون ولفه فى غلالة سوداء ، فسمع خلفه وقع أقدام يعرفها ، فاستدار فأبصر راشيل ومعها المرأة العجوز التى رآها قبل ذلك عندما زار المستر باوندرباى • فدهش لرؤيتها مرة أخرى •

سار ستيفن مع راشيل وتلك المرأة نحو البلدة • وفى أثناء الطريق ، قالت المرأة العجوز انها سمعت عن زواج المستر باوندرباى ، وانها لتحب كثيرا أن ترى زوجته • غير أن المستر باودرباى لم يخرج من منزله ، لذا سألت راشيل عن منظر تلك الزوجة •

فقال ستيفن : « أنا أخبرك ، فقد رأيتها منذ لحظة• هى صغيرة السن وجميلة ، ذات عينين سوداوين مفكرتين وجذابتين ، وأخلاقها هادئة •

سألت راشيل تقول بلهفة : « هل تركت العمل ، يا ستيفن ؟ »

قال : « يا راشيل، سواء تركت عمل المستر باوندرباى أو أن عمله هو الذى تركنى ، فهذان سيان • لقد افترقت أنا وعمله • وربما كانت هذه الطريقة أفضل • فلو بقيت هناك ، لجلب بقائى متاعب فوق متاعب • ولكن يجب أن أغادر كوكتاون ، الآن ، ثم أبدأ من جديد » •

فقالت راشيل : « الى أين ستذهب ، ياستيفن ؟ »
« لست أدرى ، وسأفكر فى هذا الأمر » •

استمر الثلاثة يسيرون نحو بيت ستيفن ، فلما اقتربوا منه ، قال ستيفن للمرأة العجوز : « هل تتفضلين بالمجىء الى بيتى ، وتتناولين قدحا من الشـــاى ؟ وكذلك تأتى راشيل • وبعد ذلك أوصلك الى مساكن السياح •• ســيمر وقت طويل قبل أن ألتقى بك مرة أخرى ، ياراشيل » •

وافقت المرأة ، فذهبوا جميعا الى حيث يقيم ستيفن •
رأى ستيفن ، بارتياح ، أن شباك حجرته مفتوح كما تركه ، ولا أحد بالحجرة •• انصرفت منذ شهور زوجته التى كانت عفريت حياته الشرير ، وأخـــذت معها بعض ممتلكاته ، ولم يسمع عنها منذ ذلك الوقت • ولكنه كان يخاف ، دائما ، أن تعود •

تناول هؤلاء الثلاثة الشاى معا ، وأخبـــرته المــرأة العجوز أن اسمها مسز پجلر Pegler ، وأنها أرملة ، ولها ابن واحد ، ولكنها فقدته •

صعدت صاحبة بيت ستيفن ، فجأة ، واستدعته الى الباب ، وأخبرته بأن مسز باوندرباى تريد زيارته •

فبدا الخوف عندئذ على وجه المرأة العجوز ، وانزوت فى أحد أركان الحجرة حيث لا يلاحظ وجودها أحد •

هبط ستيفن السلم ، وعاد بعد لحظات مع لويزا ، وكان يتبعها أخوها توم •

نهضت راشيل فى معطفها وهى ممسكة قبعتها فى يدها • وقد دهش ستيفن لهذه الزيارة • فوضع الشمعة على المائدة ، ووقف ينتظر أن تتكلم لويزا •

لأول مرة ، فى حياة لويزا ، تذهب الى بيت أحد عمال كوكتاون • ولأول مرة فى حياتها ، تلتقى بهم وجها لوجه • كانت تعلم فقط بوجودهم ، بالمئات وبالألوف • فوقفت لبضع لحظات تنظر حوالى الحجرة • فلاحظت قلة المقاعد ، والكتب القليلة ، والسرير والمائدة •

نظرت لويزا الى المرأتين والى ستيفن ، وقالت اليه: « جئت الى هنا بسبب ما حدث بعد ظهر هذا اليوم ، وأحب أن أساعدك ، ان سمحت لى• ماذا ستفعل الآن ؟ »

قال : « سأغادر هذه البلدة ، يامدام ، وأجرب غيرها » •

قالت : « وكيف ستسافر ؟ »

« على قدمى ، يا سيدتى الرجيمة ، على قدمى » .

تغير لون لويزا ، وظهر كيس نقود فى يدها ، فأخذت منه ورقة مالية ووضعتها على المائدة وقالت :

« هل تتفضلين ، ياراشيل ، بأن تخبريه بأن هذه الورقة له لتساعده فى سفره ؟ وهل تتفضلين برجائه أن يأخذها ؟ »

فقالت راشيل : « لا يمكننى أن أفعل هذا ، يا سيدتى الصغيرة . وليباركك الرب نظير تفكيرك فيه . ولكن قبول هذه الورقة يرجع اليه هو نفسه . عليه أن يفعل ما يعتقده صوابا » .

فقال ستيفن : « شكرا لك ، يامدام . سآخذ جنيهين فقط ، بصفة قرض ، وسأردهما ثانية » .

استعادت لويزا الورقة المالية ، ووضعت مكانها جنيهين ذهبيين .

فى تلك الأثناء كان توم جالسا على السرير يهز احدى ساقيه ، وينظر الى ما يجرى بدون اهتمام . فلما رأى أخته تستعد للانصراف ، نهض بسرعة وقال :

« انتظرى لحظة ، يا لو . أريد أن أتحدث مع ستيفن ، اذ طرأ على بالى أمر ، الآن . وان صحبتنى الى الخارج ، يا بلاكپول ، فسأقوله لك » .



نظرت لويزا الى المرأتين والى ستيفن وقالت اليه : « جئت الى هنا بسبب ما حدث بعد ظهر هذا اليوم ، وأحب أن أساعدك ».

تبع ستيفن توم ، فأغلق هذا الأخير باب الحجرة وراءهما ، وقال هامسا : « أعتقد أن بوسعى مساعدتك »٠

وقعت أنفاس توم كالنار على أذن ستيفن ، اذ كانت ساخنة ٠

قال توم : « متى سترحل ؟ »

فقال ستيفن ، وهو يحسب : « اليوم الاثنين ، اذا ، فسأرحل يوم الجمعة أو السبب » ٠

فقال توم : « يوم الجمعة أو السبت ٠٠ انك تعرف الشاب الذى فى المصرف ، ذلك الذى جاءك بالرسالة اليوم » ٠

قال : « نعم ، أعرفه » ٠

فقال توم : « حسنا جدا ٠ عندما تترك المصنع مساء ، فى كل ليلة حتى ترحل ، اذهب الى المصرف ، وانتظر خارجه لمدة ساعة أو نحوها ٠ قد ترى ذلك الشخص فى النافذة ، ولكنه لن يخرج ليتحدث اليك الا اذا وجدت أن بوسعى مساعدتك ٠ فان أمكننى مساعدتك ، خرج اليك ذلك الشاب ، أو ترك لك مذكرة أو رسالة ٠ هل أنت متأكد من أنك فهمت ؟ »

فقال ستيفن : « نعم ، فهمت ، ياسيدى » ٠ ثم راجعا الى الحجرة ، الى الآخرين ٠

بعد انصراف توم ولويزا ، صحب ستيفن وراشيل مسز پجلر الى مسكنها . وقد أعجبت هــذه الأخيرة بمســز باوندرباى غاية الاعجاب . وبكت لكونها فتاة جميلة .

سار ستيفن وراشيل نحو ناصية الشارع الذى تقيم فيه راشيل . وعند اقترابهما منه ، نزل عليهما سكوت تام ثم توقفا وهما لايزالان صامتين ، كما لو كان كل منهما خائفا أن يتــكلم .

وأخيرا قال ستيفن : « يا راشيل ، سأحاول أن أراك ، مرة أخرى ، قبل رحيلى . ولكن اذا لم ...... » .

قالت : « لن ترانى . أنا أعرف ذلك . من الخير أن يكون كل واحد منا صريحا مع الآخر . اكتب الى وأخبرنى بكل ما يحدث ، ياستيفن » .

« نعم ، سأكتب اليك يا راشيل ، وليكن الله معك ، وليباركك ويجازيك ويثيبك » .

« عسى أن يبارك الرب جميع تجوالاتك ، ياستيفن . وليمنحك السلم والراحة أخيرا . وليباركك الله ، ومساء الخيــر » .

لم يكن هذا سوى وداع سريع فى الشارع ، ولكنه كان ذكرى مقدسة لدى هذين الشخصين العاديين .

عمل ستيفن ، فى المصنع ، فى اليوم التالى والذى

يليه . وما من أحد من العمال تكلم معه . وكان فى كل ليلة يذهب الى المصرف ويقف خارجه أكثر من ساعة . ولم يتصل به أحد ،ولم يحدث أى شىء سواء كان طيبا أو رديئا .

قرر ستيفن ، فى الليلة الثالثة والأخيرة ، أن يبقى خارج المصرف لمدة ساعتين . فبدت هاتان الساعتان دهرا . كان يعرف أن مديرة بيت المستر باوندرباى وهى جالسة عند نافذتها بالطابق الأول . وأن رسول المصرف جاء الى تلك النافذة ، مرة أو مرتين . وجاء مرة الى الباب الأمامى ، ولكنه لم يقل شيئا لستيفن .

وأخيرا ، ذهب ستيفن الى بيته ، وودع صاحبة البيت ، وذهب الى الفراش مبكرا ، ورغب فى مغادرة البلدة مبكرا ، قبل أن يكون العمال الآخرون فى الشارع الذى يسير فيه .

عندما بزغ النهار ، ألقى ستيفن نظرة حول حجرته ، لآخر مرة ، ثم غادر البيت .

كانت الشوارع خالية من الناس ، لم يبصر فيها أى مار ، كما لو أن سكان البلدة قد هجروها ، لأنهم لا يريدون أن يتحدثوا معه .. فصعد فى التل . وعندئذ ارتفعت الشمس فى السماء بعيدا عن الأفق ، وأخذت الحياة تدب فى البلدة .

من الغريب أن يتحول ما اعتاد ستيفن رؤيته ، من المداخن العالية ذوات الدخان الكثيف ، الى الطيور تشقشق وتزقزق على أفنان الأشجار • ومن الغريب ، أيضا ، أن يعلق تراب الشوارع بقدميه بدلا من تراب الفحم • ومن الغريب كذلك أن يقضى حياته فى تلك البلدة ، ثم يرحل عنها ليبدأ حياة أخرى من جديد ، فى هذا الصباح من الصـيف •

سار ستيفن فى الطريق ، وهـذه الأفكار تدور فى خلده ، وهو يحمل صرته تحت ذراعه ، تظله الأشـجار وتهمس اليه بأنه ترك وراءه قلبا محبا •

الباب السابع

البارود

أخذ المستر هارتهاوس يفكر فى لويزا، وكيف انفرجت أساريرها ، وهش وجهها وبش ، وابتسمت ابتسامة جميلة لمجرد رؤية أخيها ، ذلك الكلب الصغير ، وسيكون احساسا جديدا ، أن تغيير ذلك الوجه من أجله هو ، جيمس هارتهاوس .

كان المستر هارتهاوس سريع الملاحظة، قوى الذاكرة. لم ينس أى كلمة مما قاله توم عن أخته لويزا . ولكن الحقيقة أنه لم يفهم الجزء الأفضل من أخلاق لويزا . فالعمق لا يستجيب الا للعمق . ورغم هذا ، أخذ يقرأ بقيته فى عينى الطالب المتعلم .

عندما تزوج المستر باوندرباى ، اشترى منزلا يبعد عن البلدة بحوالى أربعة وعشرين كيلو مترا ، وعن أقرب محطة سكة حديدية بكيلو متر واحد أو اثنين . وكثيرا ما كان المستر هارتهاوس يعيش الآن مع أسرة باوندرباى ، فى المنزل الريفى ، عندما ينتقل فى تلك المنطقة ، يعمل من أجل حزبه السياسى . وكثيرا ما كان المستر باوندرباى

يفخر أمام جميع معـــارفه بأنه لا يهتم فيما يختص بذوى العلاقات السياسية ، أمثال المســـتر چيمس هارتهاوس . ولكنه يقول ، ان اهتمت بهم زوجته ، رحبوا بصحبتها .

وذات يوم ، جلست لويزا وحدها فى الحـــديقة ، والجو هادىء هناك وسط الأشجار . وقد اعتادت أن تجلس فى الحديقة ، تلاحظ أوراق السنة الماضية وهى تسقط ، مثلما كانت تلاحظ رماد النار فى بيت طفولتها .

جاء المســـتر هارتهاوس الــى حيث تجلس مســـز باوندرباى ، وقال : « يسرنى ، يامسز باوندرباى ، أن أجدك وحدك ، لأننى أريد أن أتحدث معك فى موضوع خاص بك » .

جلس هارتهاوس الى جانب لويزا ، ينظر الى وجهها الجميل ، وقال :

« أخوك توم . صديقى الصغير توم ..... » .

ما ان سمعت لويزا اسم أخيها توم ، حتى انفرجت أسارير وجهها . ونظرت الى هارتهاوس باهتمام . ففكر يقول لنفسه : « لم أر فى حياتى شيئا جذابا مثل هـــذا الوجه عندما تنفرج أساريره » .

أدرك هارتهاوس أن لويزا لاحظت اعجابه ، فقال : « عفوا ، ياسيدتى ! ملامح محبتك الأخوية جميلة جدا ، يجب أن يفخر بها توم » .

قالت : « يامستر هارتهاوس . اننى لأوقرك من أجل محبتك لأخى » .

فاستطرد يقول بلهجة ألطف : « يامسز باوندرباى ، أخوك توم ، مازال صـــغيرا ، وليس ذنبا كبيرا أن يبذر نقـــوده » .

قالت : « هـــذا صحيح » .

قال : « اسمحى لى ، يا مسز باوندرباى ، بأن أكون صريحا . أتظنينه يراهن ؟ »

قالت : « نعم ، أظنه يراهن ـ وأعلم ذلك » .

قال : « وبالطبع ، يخسر ! » .

قالت : « نعـــم » .

قال : « كل من يراهن يخسر . وهل لى أن أقول انك ربما أعطيته نقودا ، فى بعض الأحيان ؟ »

جلست لويزا تنظر الى أسفل ، ولكن عندما سمعت هذا السؤال ، رفعت عينيها ذعرا .

فقال هارتهاوس : « أريد مساعدة توم » .

قالت : « يامستر هارتهاوس ! أنا لا أندم على أى شىء فعلته . فعندما تزوجت ، وجدت أخى مثقلا بالديون . فبعت بعضا من مجوهراتى وأعطيته النقود . ولكنه يحتاج

الآن الى مبالغ أكبـــر ، لا يمكننى أن أعطيــه اياها .. احتفظت بهذا سرا ، حتى الآن . وانى لأثق فى شرفك » .

فقال المستر هارتهاوس ان ذلك لم يكن خطأ أخيها ، اذ كان تعليمه صارما ، ثم أردف يقول :

« اننى لألومه على شىء واحد : هو أن يكون أكثر رقة معك ، وأكثر اعترافا بالجميل » .

عندما سمعت لويزا هذا الكلام ، لاح أمام عينيها منظر الغابات ، اذ امتلأت عيناها بالدموع ، خرجت من مآقيها العميقة حيث ظلت خافية لمدة طويلة . وكان قلبها مفعما بالألم الحاد . الا أن هذا الألم لم يجد شفاء فى الدموع .

فقال هارتهاوس : « سأفعل كل ما فى مقدورى لتغيير هذا ، يامســز باوندرباى . وهأنذا أرى أخاك قادما الى الحديقة ، نحونا » .

نهض چيمس هارتهاوس ، كما نهضت لويزا ، لملاقاة الكلب الصغير ، وكان فى حالة نفسية بالغة السوء . فلما وصلوا ، جميعا ، الى البيت ، تركتهما لويزا .

سأل هارتهاوس ، توم بقوله : « ما الخطب ياعزيزى تـــوم ؟ »

قال وهو يتأوه : « آه ، يامســـتر هارتهاوس . أنا بحاجة فظيعة الى نقود ، وقلق جداً من أجلها » .

قال هارتهاوس : « وكذلك أنا ، ياصديقى الطيب » .

فقال توم : « أنت ؟ انك بخير ، يامستر هارتهاوس. أما أنا ففى مأزق حرج • ليس لديك أية فكرة عن الحالة التى أوقعت نفسى فيها • لكن ، بوسع أختى أن تخرجنى منها ، وتنتشلنى ، ان فعلت » .

قال : « انك لتتوقع الكثير من أختك ، يا توم • لقد حصلت منها على نقود ، قبل الآن ، أيها الكلب ، وأنت تعـرف ذلك » .

قال وهو يكاد يبكى : « أعرف أننى أخــذت منها نقودا •• فالى من أذهب للحصول على نقود ؟ »

فقال هارتهاوس : « ولكن يا عزيزى توم ، ان لم يكن لدى أختك ••••• » .

فأجاب توم بقوله : « يجب أن تحضرها • لم تتزوج العجوز باوندرباى من أجل خاطرها • بل من أجل خاطرى أنا • يجب أن تكون أكثر رفقا معه •• انها تجلس معــه كقطعة من الحجر • بوسعها أن تجعل نفسها مقبولة وتأخذ منه كل ما تريده من نقود » .

كان بأسفل المكان الذى يقفان فيه ، بركة ماء للزينة. وكانت لدى المستر چيمس هارتهاوس رغبة قوية فى أن يقذف فيها توم جراداجريند الصــغير • ولكنه اســتمر يتكلم باللين •

قال هارتهاوس : « ياعزيزى توم ، دعنى أكـــون صاحب مصرفك » .

فقال توم ، فجأة ، وقد امتقع لونه : « من أجـــل خاطر الله ، يامستر هارتهاوس ، لا تتكلم عن المصارف ».

فقال هارتهاوس : « كم تحتاج الآن ، يا توم ؟ ثلاثة أرقام ؟ قل كم تحتاج » .

قال توم ، وهو يبكى :«الواقع ، يامستر هارتهاوس، أنه فات الأوان . ليس للنقود أية فائدة لى ، الآن . كان يجب أن أحصل عليها قبل الآن . ولكنى شاكر لك جدا . انك صديق حميم ، وكم أتمنى لو أننى عرفتك من قبل ».

قال : « يا توم ! يجب أن تكون أكثر محبة ولطافة حيـــال أختك » .

قال : « سأكون كذلك ، يا مستر هارتهاوس » .

فقال هارتهاوس : « ما من وقت مثل الوقت الحاضر ، يا توم . أبدأ فورا » .

عندما ظهر توم عند العشاء ، قال لأخته : « لم أقصد أن أكون ثقيلا، يا لو ». ومد اليها يده وقبلها ، ثم استطرد يقول : « أعرف أنك مولعة بى ، وتعرفين أننى مولع بك».

ابتسمت لويزا ، فى ذلك اليوم ، لشخص آخر . للأسف ، لشخص آخر .

الباب الثامن

الانفجار

في اليوم التالى ركب المستر چيمس هارتهاوس حصانا وأخذ يطوف فى أرجاء تلك المنطقة ، يزور الناس الذين يصوتون لحزبه . فلما رجع فى الساعة السادسة مساء ، اندفع نحوه فجأة المستر باوندرباى ، فجفل حصانه .

صاح المستر باوندرباى ، يقول : « يا هارتهاوس ! هل سمعت ؟ »

فقال هارتهاوس : « سمعت ماذا ؟ » وهدأ حصانه وربطه جانبا .

وقف المستر باوندرباى ثائرا عابس الأسارير وقال : « لقد سرق المصرف » .

قال : « لابد أنك تقصد شيئا غير هذا » .

فقال باوندرباى : « سرق فى الليلة الماضية ، يا سيدى . سرق بطريقة غير عادية . سرق بمفتاح مصطنع » .

« وهل سرق مبلغ كبير ؟ »

« ليس كبيرا جدا . الا أنه كان من الممكن سرقة مبلغ كبير » .

« كـــم ؟ »

فقال المســـتر باوندرباى : « ليس أكثر من مـــائة وخمسين جنيها .ولكن المهم ليس هو المبلغ . المهم هو الحقيقة . سرق المصرف . هذا هو المهم . يدهشنى أنك لم تفهم ذلك » .

جاء اليهما : لويزا ، ومسز سپارسيت ، وبيتزر .

فقال المستر باوندرباى : « تعرف زوجتى جيـدا ، ماذا كان يمكن أن يحدث ، فلما سمعت أغمى عليها » .

مازالت لويزا تبدو ضعيفة وشاحبة اللون . فطلب منها المستر چيمس هارتهاوس أن تمسك ذراعه ، ثم أخذا يسيران ببطء .

مازال المستر باوندرباى متكدرا ، فقال : « سأخبركم كيف حدثت السرقة . هل تعرف مسز سپرايت ؟ »

فأجاب چيمس هارتهاوس بقولة : « سـبق أن نلت شرف معرفتها » .

« و هل تعرف ذلك الشاب بيتزر ، وتعرف أن كليهما يعيش فى المصرف ؟ فعند نهاية العمل ، مساء أمس ، وضع كل شىء كالمعتاد . ونام ذلك الشاب خارج غرفة الخزانة . كما أن هناك خزانة صغيرة فى الحجرة التى يعمل بها توم . وتستعمل للمبالغ البسيطة . كان بها مائة وخمسون جنيها .



ما زالت لويزا تبدو ضعيفة وشاحبة اللون ٠ فطلب منها المستر جيمس هارتهاوس أن تمسك ذراعه ، ثم أخذا يسيران ببطء ٠

فقال بيتزر : « مائة وأربعة وخمسون » .

فقال المستر باوندرباى : « لا تقطع على القول ، يابيتزر . يكفى أن سرق المصرف وأنت نائم . سأستمر فى كلامى . وضع توم ذلك المبلغ فى الخزانة وأقفلها . وهى ليست خزانة قوية جدا . وعندما انصرف توم ، كان كل شىء على ما يرام . وفى أثناء الليل ، وبيتزر نائم ، ذهب شخص ما الى خزانة توم . لابد أنه - أو أنهم - كانوا مختبئين فى البيت ، أو دخلوه بطريقة ما . ففتحوا خزانة توم الصغير عنوة ، وأخذوا ما فيها ، وخرجوا من البيت ، من الباب الرئيسى . وكان الباب موصدا بالقفل . ولكنهم استخدموا مفتاحا مصطنعا ، عثر عليه ، فيما بعد ، فى الشارع بقرب المصرف فى حوالى الساعة الثانية عشرة .. فعندما فتح بيتزر المكاتب ، فى هذا الصباح ، لاحظ خزانة توم . كان الباب نصف مفتوح ، والقفل مكسورا ، والنقود غير موجودة » .

تطلع المستر هارتهاوس حواليه ، وقال : « أين توم ، الآن ؟ »

فقال بيتزر : « انه يساعد البوليس . وهو الآن بالمصرف » .

فقال هارتهاوس : « وهل اشتبه فى أى شخص ؟ »

كاد المستر باوندرباى ينفجر غضبا ، وقال : « قد يكون اللص يدا من المصنع » .

فقال هارتهاوس ، فى هدوء : « آمل فى ألا يكون صديقنا بلاكپول » .

فقال المستر باوندرباى : « قل پول ، (أى بركة) بدلا من قدر ، ياسيدى . انه ذلك الرجل ستيفن بلاكپول ، هو المشتبه فيه » .

أطلقت لويزا صوت دهشة ضعيفا . فنظر المستر باوندرباى الى هارتهاوس ، وقال : « هل تذكر ماقلته له عندما رأيته معى . أخبرته بما أعتقده فى سلوكه . أنا أصرح ، دائما ، بما يجول بفكرى . أعرف أولئك الأيدى. لقد اختفى بعد ذلك بثلاثة أيام ، ولا أحد يعرف أين ذهب. وماذا فعل قبل أن يرحل ؟ شوهد ليلة بعد ليلة خارج المصرف ، يراقبه » .

فقال چيمس هارتهاوس : « هذا أمر يدعو الى الريبة ، بكل تأكيد » .

فقال المستر باوندرباى : « هذا هو نفس اعتقادى . ولكن هناك أكثر من واحد . هناك سيدة عجوز ، يبدو أنها قدمت الى البلدة فى زيارة طارئة . وهى تراقب المصرف ، أيضا . التقت به فى الليلة التى رأيت فيها بلاكپول بمنزلى» .

تذكرت لويزا ، أنه كان بمنزل ستيفن بلاكپول ، فى تلك الليلة ، امرأة عجوز ، توارت فى ركن مظلم بالحجرة دون أن تتكلم ٠

فقال هارتهاوس : « لا شك فى أنهم سيعاقبون جميعا عندما يعثر عليهم » ٠

بعد ذلك ، دعا المستر باوندرباى ، مسز سپارسيت لتمكث معهم مدة يوم أو يومين ، اذ أزعجتها كثيرا ، سرقة المصرف هذه ٠

بعد العشاء ، تناقش المستر باوندرباى ، فى حجرة الاستقبال ، فى موضوع السرقة ثم أرسل بيتزر ثانية الى المصرف يحمل رسالة الى توم كى يأتى اليهم بآخر قطار فى تلك الليلة ٠

فيما بعد ذلك ، حثت مسز سپارسيت ، المستر باوندرباى على أن يجلس الى مائدة ، ويلعب معها لعبة الحظ فجلسا بجانب شباك يطل على الحديقة ٠ وكان مساء لطيفا ، وكانت لويزا تسير مع هارتهاوس فى الحديقة ، وكان بالامكان سماع صوتيهما فى ذلك الجو الهادىء ، ولكن ليس نص الكلام ٠ استمرت مسز سپارسيت تنظر الى الحديقة بينما يظلم الجو شيئا فشيئا ٠

فقال المستر باوندرباى : « ما الخطب ، يامدام ؟ هل ترين حريقا ؟ » ٠

قالت : « لا ، ياسيدى .. كنت أفكر فى هواء الليل البارد ، وأخشى أن تصاب الآنسة جرادجرايند بالبرد » وكانت تقصد لويزا .

فقال المستر باوندرباى : «انها لا تصاب بالبرد أبدا».

بعد مدة طويلة من ذهاب لويزا الى الفراش ، فى تلك الليلة ، انتظرت قدوم أخيها ، وأخذت تنصت وهى تعرف أنه لن يأتى الا بعد منتصف الليل . فلما سمعت وقع أقدامه ، عرفت أنه جاء ، فذهبت الى حجرته .

كان باب الحجرة مقفلا ، ففتحت برفق ، وتحدثت اليه . ثم سجدت الى جانب سريره ، وجذبت وجهه نحوها وهى تعرف أنه لم يكن نائما . فتظاهر بأنه صحا لتوه ، وسألها ما الخطب .

قالت : « يا توم . الديك ما تحدثنى به ؟ ان كنت قد أحببتنى فى حياتك ، ولديك ما تخفيه عن كل انسان غيرى ، فبح به الى » .

قال : « لا أعرف ما تقصدين ، يا لو . انك تحلمين » .

لم يخبر توم أخته بشىء ، ولكنه بكى بعد أن انصرفت .

الباب التاسع

سماعها لآخر مرة

مازالت مسز سپارسيت تقيم مع أسرة باوندرباى . كانت مؤدبة جدا ولطيفة مع المستر باوندرباى ، وقدر هو لها هذا المسلك ، فصار رقيقا مع مسز سپارسيت أكثر من ذى قبل ، وأقسى مع كل من عــداها ، ابتــداء من زوجته فمن دونها .

وذات صباح ، قالت مسز سپارسيت ، بطيبة قلب : « أراك تنتظر طعام افطارك ، يامستر باوندرباى ، وأتوقع مجىء زوجتك الى هنا ، بسرعة ، لتهتم بك » .

قال : « لو انتظرت زوجتى لكى تهتم بى ، يامدام، لانتظرت الى الأبد . ربما يمكنك اعداد ابريق الشاى » .

نفذت مسز سپارسيت ، ما طلبه المستر باوندرباى ، ثم اتخذت مكانها القديم الذى اعتادته عند المائدة ، عندما كانت مدبرة بيته قبل أن يتزوج .

بعد مرور مدة ، من ذلك اليوم ، جاء بيتزر يحمل مذكرة تخبر لويزا بأن أمها مريضة جدا . لم تكن صــحة

والدتها طيبة ، أبدا . وساءت الآن كثيرا . فذهبت لويزا ، على الفور ، الى بيتها القديم ، لترى أمها .

ذهبت لويزا ، والحزن يملأ نفسها ، الى البيت ، الى حجرة أمها . ومنذ أن تركت لويزا ذلك البيت ، عاشت سيسى چوب مع بقية الأسرة ، على قدم المساواة . فوجدتها لويزا جالسة الى جانب سرير الأم المريضة .

قالت الأم بضعف : « أرجو ، ياعزيزتى ، أن تكونى فى أحسن حال ، فى حياتك . كان زواجك كله من فعل أبيك . هو الذى أصر عليه ، ويجب أن يعرف ذلك » .

فقالت لويزا : « أريد أن أسمع عنك ، يا أماه وليس عن نفسى » .

فقالت الأم : « لست بحال جيدة ، يا لويزا . أنا ضعيفة جدا » .

« هل تشعرين بألم ، يا أمى العزيزة ؟ »

قالت : « أظن هناك ألما فى موضع ما بالحجرة . ولكنى لست متأكدة من أن الألم بى » . ثم صمتت لحظة وأردفت تقول : « يا فتاتى الطيبة سيسى ، اتركينى وحدى لمدة دقيقة » . فغادرت سيسى الحجرة .

فقالت لويزا : «هل تريدين التحدث معى، يا أماه ؟»

« نعم .. تعرفين أن أباك فى لندن . يجب أن أكتب له عنه » .

« عن ماذا ، يا أماه ؟ »

قالت : « لقد علمك أبوك ، وعلم أخاك ، أشياء كثيرة ، أكثر مما أستطيع فهمه . ولكن هناك شيئا نسيه أبوك ، يالويزا . لست أدرى ماهو . وكثيرا ما جلست ، وسيسى قريبة منى ، وفكرت فى ذلك الشىء . ولكنى لم أعرف اسمه حتى الآن . أما أبوك فقد يعرفه . أريد أن أكتب اليه أطلب منه أن يعرفنى بذلك الشىء . أعطينى قلما » .

ما كانت الأم لتستطيع أن تمسك قلما . ولكنها حركت يدها كما لو كانت تكتب . ثم توقفت يدها . لقد أنطفأ النور الذى كان دائما ضعيفا ، وخرجت مسز جرادجرايند من الظل الذى يعيش فيه الانسان قلقا .

الباب العاشر

سلم مسز سبارسيت

مكثت مسز سپارسيت بضعة أسابيع فى بيت أسرة باوندرباى • وعندما أرادت الانصراف ، دعاها المستر باوندرباى لأن تقضى عندهما عطلة نهاية الأسبوع ابان الطقس اللطيف • فقبلت مسز سپارسيت الدعوة مسرورة •

ظلت مسز سپارسيت تراقب لويزا ، وتخيلتها تهبط سلما كبيرا ، عند قاعدته العار والخراب للويزا • وصار عمل حياة مسز سپارسيت أن تنظر الى قمة سلمها الخيالى ، وتراقب لويزا وهى تهبطه ، أحيانا ببطء ، وأحيانا أخرى بسرعة • وأحيانا تهبط عدة درجات فى كل خطوة • وأحيانا تهبط ولكنها لا تستدير عائدة الى أعلى اطلاقا •

عندما كانت مسز سپارسيت تحزم أمتعتها ، ذات مساء ، لتغادر المنزل ، نظرت الى سلمها الكبير فأبصرت لويزا مازالت تهبط •

جلست لويزا الى جانب المستر چيمس هارتهاوس فى مكان هادىء بالحديقة ، يتكلمان بهدوء جدا • الواقع

أنهما كانا يتكلمان عن ستيفن بلاكبول • الا أن مسز سپارسيت لم تسمع حديثهما •

قال المستر هارتهاوس : « أظن أن ستيفن سرق النقود » •

غير أن لويزا لم تصدقه ، فى مبادىء الأمر • فأخذ يحثها على تصديقه • ثم شرعا يسيران ببطء فى ممرات الحديقة ، والظلام ينتشر فى الجو • فاستندت لويزا على ذراع هارتهاوس • لم تعرف أنها كانت تهبط الى أسفل ، والى أسفل ، والى أسفل ، سلم مسز سپارسيت •

الباب الحادى عشر

الى أسفل والى أسفل

عندما علم المستر جرادجرايند بموت زوجته ، رجع من لندن ، ودفنها بطريقة عملية ، ثم عــاد مباشرة الى أعماله البرلمانية فى لندن ٠

فى ذلك الوقت ، اذ رجعت مســـز سپارســيت الى مسكنها فى المصرف ٠ داومت على المراقبة ٠ لقد انفصلت عن سلمها طوال الأسبوع ، بقدر المسافة ما بين كوكتاون ومنزل المســـتر باوندرباى الريفى ٠ ولكنها ظلت تراقب لويزا ، مراقبة دقيقة بطريقة غير مباشرة ٠

قالت مسز سپارسيت للشبح الهابط : « قـــدمك على الدرجة السفلى من السلم، يا سيدتى ، وكل أفانين خداعك، لن تعمينى » ٠

حقيقة ، كانت لويزا صامتة هادئة بصورة غريبة ٠ وكانت هناك أوقات لا يتأكد فيها المستر چيمس هارتهاوس من لويزا ، وأوقات لم يستطع فيها قراءة ذلك الوجه الذى درسه مدة طويلة ٠

مر الوقت ، وحدث أن استدعى العمل المستر باوندرباى بعيدا عن بيته لمدة ثلاثة أو أربعة أيام ، ولكنه دعا مسز سپرايت الى أن تذهب الى بيته الريفى لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ، كما اعتادت .

عندما أقفل المصرف فى ذلك المساء ، قالت مسز سپرايت لبيتزر ، رسول المصرف :

« اذهب ، من فضلك ، يا بيتزر ، وأخبر توم الصغير بأن يأتى ويشاركنى وجبة » .

قبل توم الصغير الدعوة ، وسرعان ما كان يتناول العشاء على مائدة مسز سپارسيت .

سألت مسز سپارسيت توم ، بقولها : « كيف حال المستر هارتهاوس ، يا مستر توم ؟ »

قال : « انه بخير » .

فقالت مسز سپارسيت بلهجة ودية : « أين هو الآن ؟»

قال : « كان بعيدا عن البيت ، غير أننى أتوقع أن أراه غدا . عندى موعد معه . اتفقنا على أن نلتقى فى المساء عندما يصل الى المحطة هنا ، فى كوكتاون . ثم نتعشى معا . لا يستطيع البقاء فى بيت أبى كثيرا الآن ، اذ عليه أن يتنقل ، ولكنى أظنه سيمكث هناك يوم الأحد القادم » .

فقالت مسز سپريت : « يوم الأحـــد ؟ هذا يذكرنى بشئ . فهل تتفضل يا مستر توم ، بحمل رسالة الى أختك؟ أرجوك أن تخبــرها وهي وحــدها ، بأننى لن أستطيع الذهاب الى بيتها الريفى ، فى نهاية هـــذا الأسبوع لأن صحتى ليست على مايرام » .

فى يوم السبت التالى ، جلســت مسـز سپارسيت بجانب نافذتها طول اليوم . وفي المساء ، ارتدت معطفها وقبعتها ، وذهبت الى المحطة . فجلست فى أحد الأركان المظلمة بالمحطة ، واختبأت فى حجرة انتظار الســيدات لفترة ما ، وأخذت تراقب ما يحدث خارج الحجرة .

أبصرت مسز سپارسيت ، توم على رصيف المحطـة ينتظر القطار القادم . ولكن عند مجئ ذلك القطار لم يكن المستر چيمس هارتهاوس به . فتحدث توم مع موظفى المحطة ، فعلم أن عليه أن ينتظر ساعة وأربعين دقيقة حتى يأتى القطار التالى . فقالت مسز سپارسيت لنفسها : « هذه خطة مدبرة ، لابعاد توم عن البيت ... هارتهاوس الآن مع أخته » .

وعلى هذا ،تركت مسز سپارسيت هذه المحطة بسرعة، وذهبت الى المحطة الأخرى التى بالبلدة حيث يمكنها أن تستقل القطار الى بيت المستر باوندرباى الريفى . وسرعان ما كانت فى القطار ، وهى تتصور سلمها الخيالى ، طوال الطريق ، فترى الشبح يقترب الآن من الخراب والدمار .

كان مساء غائما من شهر سبتمبر . فذهبت مسز سپارسيت الى بيت المستر باوندرباى ، واختبأت فى الحديقة . ونظرت الى نوافذ البيت ، فلم تكن بها أنوار حتى ذلك الوقت ، والجو يسوده الهدوء . فنظرت حواليها فى الحديقة ، فلم تبصر أحدا . ثم فكرت فى الغابة الصغيرة القائمة فى طرف الحديقة ، والمقعد الذى تحب لويزا أن تجلس فيه .

سارت مسز سپارسيت ، حتى صارت على مسافة آمنة من ذلك المقعد ، ووقفت هادئة ، وأصغت .. هناك أصوات خافتة قريبة : صوته وصوتها . اذا ، فقد كان الموعد مع توم فى المحطة ، مجرد خدعة لابعاده من طريقهما .. كانا هناك يجلسان معا ، بين الأشجار .

اقتربت مسز سپارسيت مسافة ما ، وكان چيمس هارتهاوس ، قد جاء راكبا حصانه خلال الحقول فلما وصل ، ترجل وربط الحصان فى السور . انه يتكلم الآن مع لويزا .

قال المستر هارتهاوس :« يا أعز محبوبة ! ماذا بوسعى أن أفعل ؟ عرفت أنك وحيدة هنا ، فهل من الممكن أن أبقى أنا بعيدا ؟ »

حولت لويزا نظرها الى أسفل ، ورجت هارتهاوس أن ينصرف . ثم أمرته بأن ينصرف . لم ترفع عينيها عن

الأرض ، ولم تنظر الى وجهه ، أو اليه ، أو نحوه . بل جلست ساكنة واضعة يدا فوق أخرى ، وهى تتكلم ببطء .

ابتهجت مسز سپارسيت عندما رأت ذراع هارتهاوس حول وسط لويزا ، وهو يقول لها : « يا طفلتى العزيزة . ألا تسمحين لى بالبقاء هنا برهة ؟ »

« ليس هنــا » .

« أين ، اذا ، يا لويزا ؟ »

« ليس هنــا » .

فقال هارتهاوس : « ولكن ليس لدينا سوى القليل من الوقت الذى يمكن أن ننتفع به . وقد جئت من مســـافة بعيدة .. أنا عبدك » .

قالت بلهجة الغضب : « هل أجبر على أن أقول مرة أخرى ، انه يجب أن أترك وحدى ؟ »

قال : « ولكن يجب أن نتقابل ، يا عزيزتى لويزا . فأين نتقابل ؟ »

أخذ جيمس هارتهاوس يلقى على مسامع لويزا أنه يحبها حبا جما ، وعلى استعداد لأن يتنازل عن كل شىء من أجلها . فسمعت مسز سپارسيت هــذا الكلام العاطفى وهى مبتهجة .. وأخيرا ، ركب المستر هارتهاوس جواده وانصرف .

لم تتأكد مسز سپارست من المكان الذى سيلتقيان فيه • ولكنها كانت على يقين من أن اللقاء سيكون فى تلك الليلة • ولاحظت لويزا وهى تدخل البيت • وانتظرت فى الحديقة تحت المطر الوابل ، وقد ابتل جوربها الأبيض كله • وسال المطر من قبعتها ومن أنفها المعقوف • وأخيرا ، أبصرت لويزا تخرج من البيت •

فكرت مسز سپارسيت فى أن لويزا ستهرب مع هارتهاوس • فلم تعبأ بالمطر الغزير ، وتبعت لويزا •

خرجت لويزا من الباب الجانبى ، ويممت شطر المحطة • وعرفت مسز سپارسيت أنه سرعان ما سيأتى قطار متجه الى كوكتاون •

اختبأت مسز سپارسيت ، من لويزا ، فى المحطة • فلما جاء القطار ، مركبت لويزا فى احدى العربات ، وركبت مسز سپارسيت فى عربة أخرى • ورغم أن أسنانها كانت تصطك بشدة بسبب البرد ، الا أنها كانت مسرورة •

قالت مسز سپارسيت لنفسها : « ستصل لويزا الى كوكتاون قبل هارتهاوس ، فأين ستنتظره ؟ أو الى أين سيذهبان معا ؟ سوف أرى » •

ولكن مسز سپارسيت لم تر شيئا • لقد أحدثت العاصفة ارتباكا فى محطة كوكتاون ، حتى ان مسز سپارسيت فقدت رؤية لويزا •

الباب الثانى عشر

الى أســـفل

جلس المستر جرادجرايند فى بيته (ستون لودچ)، اذ لم يعقد البرلمان جلســـته . وكان يكتب فى حجرته ، والساعة العتيقة مازالت هناك تدق بصوتها العالى المنتظم .

لم تزعج العاصفة الرعدية المستر جرادجرايند كثيرا . وكان الرعد وقتذاك يتجه بعيدا والمطر يهطل كالطوفان .

بينما المســـتر جرادجرايند منهمكا فى الكتابة ، اذ بباب حجرته يفتح فجأة ، فتطلع حواليه وهو أمام المصباح الموضوع على المائدة . فأدهشه أن رأى ابنته الكبرى .

« لويزا ! »

قالت : « أريد أن أتحدث اليك ، يا أبت » .

بدت لويزا غريبة الشكل ، حتى ان أباها خاف منها . فجلست على مقعد ، ووضعت يدها الباردة على ذراعه .

قالت : « لقد دربتنى ، يا أبت ، منـــذ سـنواتى المبكـرة » .

قال : « نعم ، يا لويزا » .

قالت : « انى لألعن الساعة التى ولدت فيها لمثل هذا المصير » .

فلما سمع الأب كلامها هذا ، بعد كل عنايته بها ، طأطأ رأسه ، وأسنده فوق يده ، وتأوه عاليا .

قالت : « كنا معا لآخر مرة فى هذه الحجرة ، يا أبت ، عندما تحدثت الى عن الزواج بچوزياه باوندرباى . ولو عرفت حقيقة مشاعرى ، فهل كنت تعطينى له ؟ »

« كلا ، يا طفلتى المسكينة » .

قالت : « هل كنت تسلبنى الجزء الهام من حياتى : ربيع وصيف ايمانى ؟ »

أجاب الأب بقوله : « كلا ، كلا ، يا لويزا » .

قالت لويزا : « شعرت بأن الحياة سرعان ما ستمر ، ولا شىء يساوى ألم النضال وتعبه » .

فقال المستر جرادجرايند باشفاق : « وأنت صغيرة هكذا يا لويزا ؟ » .

قالت : « كان شعورى على ذلك النحو ، يا أبى ، عندما اخترت لى زوجى . فأخذته ... ولم أدع سواء له أو لك ، بأننى أحببته ... كنت أعرف ، وأنت تعرف ، وهو يعرف أننى لا أحبه اطلاقا . ظننت أن بمقدورى مساعدة أخى توم ، بهذا الزواج . كنت أشعر بالعطف الكثير على توم » .

فقال أبوها : « وماذا بوسعى أن أفعل ، يا طفلتى لويزا ؟ اطلبى ما تريدينه » .

قالت : « يا أبت ، ألقى الحظ فى طريقى بصديق جديد . انه رجل اجتماعى عصرى ، ومهذب ومرن . لم تسبق لى أية ممارسة مع أمثال هذا الرجل . لم يتقـدم بادعاءات .. له آراء متواضعة عن كل شىء ، شعرت بأنها هى آرائى ، أنا نفسى ، أيضا . يبدو أن هناك تقاربا بيننا ، يا أبى . وما تعرفه عن قصة زواجى ، سرعان ما عرفها هو أيضا » .

امتقع لون المستر جرادجرايند جدا ، وأمسك ابنته بكلتا ذراعيه .

قالت : « لا أعرف ما اذا كنت أحبه . ولكن تغيب زوجى فى هذه الليلة ، فجاء الى ذلك الرجل ، وقرر أنه يحبنى . وانه ليتوقع لقائى ، فى هذه اللحظة .. آسفة لأننى لا أعرف مثل ذلك الشىء . كل ما أعـرفه هو أن فلسفتك وتعليمك لن ينقذانى . وبما أنك نشأتنى على هذا ، يا أبى ، فانقذنى » .

شـدد الأب قبضته على ابنته ، فصرخت بصـوت فظيع ، وقالت : « سأموت أن أمسكت بى ! » ثم سقطت على الأرض مغمى عليها .

الجـــزء الثـالث

الحصــــاد

البـاب الأول

شىء ضرورى آخر

أفاقت لويزا ، بعد ذلك ، فى فراشـــها بحجرتها القديمة • ثم دخل أبوها ليطمئن عليها • وبعد ذلك دخلت سيسى چوب •

قالت سيسى : « أرجو ألا أكون قد أزعجتك • جئت لأسألك ما اذا كان بوسعى أن أبقى معك » •

فقالت لويزا : « لماذا تمكثين معى هنا ؟ »

قالت سيسى : « أحب أن أساعدك ان استطعت »

« لمــــــاذا ؟ »

« لأساعدك فى أى شىء تحتاجين اليه ، ان كان ذلك الشيء فى مكنتى • وعلى أية حال ، سأحاول أن أكون بقربك ، قدر طاقتى • فهل تسمحين لى بذلك ؟ »

فقالت لويزا : « هل سبق أن كرهتك ؟ »

فقالت سيسى : « أرجو ألا تحدث بيننا أية كراهية ، لأننى أحببتك دائما ولكنك تغيرت قليلا . عندما غادرت هذا البيت . وكان هذا طبيعيا جدا ، عندما تذهبين الى أصدقاء .. لم أتأثر اطلاقا » .

ادركت لويزا أن هذه الفتاة تحبها ، وتأثر بها قلبها .

فقالت سيسى : « هل أحاول ؟ »

فأومأت لويزا برأسها علامة على الموافقة .

وهكذا صارت سيسى چوب ، ابنة عارض السيرك ، أوفى صديقة للويزا .

★ ★ ★

قضى المستر هارتهاوس ، ليلة كاملة ويوما كاملا ، فى قلق بالغ . فبعد أن ترك لويزا ، عاد الى فندقه . فظل جالسا ، الليل بطوله ، ينتظرها . وفى الصباح ، ذهب الى بيت باوندرباى الريفى ، مرة أخرى فعلم أن المستر باوندرباى مازال غائبا ، وأن زوجته فى البلدة .. سافرت فى الليلة الماضية ، فجأة .

وعلى هذا ، رجع چيمس هارتهاوس ، ثانية ، الى كوكتاون ، وذهب الى بيت باوندرباى بالبلدة . أملا فى

أن يجد لويزا هناك ، ولكنه لم يجدها . فسأل فى المصرف، فعلم أن المســتر باوندرباى ما فتىء متغيبا ، وأن مسز سبارسيت ليست هناك ، هى أيضا . فسأل توم أين ذهبت مسز سبارسيت .

فقال توم : « لست أدرى . انصرفت الى مكان ما ، فى أول هذا الصباح » .

فقال هارتهاوس : « أين كنت فى الليــلة الماضية ، يا توم ؟ »

قال : « كنت أنتظرك بالمحطة ، يا مستر هارتهاوس. ولكنك تعنى أين كنت أنت ! »

فقال هارتهاوس : « منعنى الذهاب طــارىء ما . فاضطررت الى البقاء » .

فقال توم : « كذلك اضطررت أنا الى البقاء . كلانا اضطر الى البقاء . اذ بقيت بالمحطة حتى فاتنى كل قطار. فكان لزاما على أن أنام بالبلدة » .

« أين ؟ »

« ولماذا أين ؟ فى فراشى ببيتنا » .

« هل رأيت أختك ؟ »

« كيف أرى أختى وبينى وبينها مسافة أربعة وعشرين كيلو مترا ؟ »

عاد چيمس هارتهاوس الى فندقه . وظل طيلة بعد الظهر ينتظر أخبارا . وأخيرا جاءه خادم الفندق ، يقول : « عفوا ، يا سيدى . توجد فتاة تريد مقابلتك » .

أسرع المستر هارتهاوس بالخـــروج من حجرته الى حيث تقف فتاة لم يرها من قبل ، ترتدى ثيابا بسيطة ، وكانت هادئة جدا ، وجميلة جدا . فقادها الى الحجرة ، وقدم لها كرسيا لتجلس . فرآها فى نور الشموع ، أجمل مما كان يظن .

عندما صـــارا وحدهما ، قالت الفتاة : « هل أنت المستر هارتهاوس ؟ »

قال : « نعم ، أنا المستر هارتهاوس » .

قالت : « ربما أمكنك التخمين بمن تركتها منذ لحظة قصــيرة ! »

قال : « كنت قلقا جدا ، ومهموما غاية الهم من أجل سيدة صغيرة السن ، فى الأربع والعشرين ساعة الماضية . وآمل ، أن تكونى قد جئت من عندها » .

قالت : « نعم ! وتركتها منذ أقل من ساعة » .

« أين ؟ »

قالت : « فى بيت أبيها » .

استطال وجه المستر هارتهاوس ، رغم بروده .

استطردت هذه الفتاة ، تقول : « جاءت الى هناك ، فى الليلة الماضية ، فى حالة اضطراب شديد . وظلت فاقدة الوعى طول الليـــل .. أنا أقيم فى بيت والدها . وكنت معها . يمكنك أن تتأكد ، يا سيدى ، من أنك لن تراها مرة أخرى » .

استنشق المستر هارتهاوس نفسا عميقا ، وقال : « هل طلبت منك هذه السيدة ، أن تخبرينى بهذا ؟ »

قالت : « كلا ، ولكن لا تأمل فى أن تراها » .

قال : « ولكن تلك السيدة لم تبعث الى بأية رسالة ، ولم تطلب منك أن تأتى الى ؟ »

قالت : « هذا صحيح . ولكنها تثق بى ، وأنا أعلم شيئا عن زواجها ، وأظنك ، أنت أيضا ، تثق بى ، يا مستر هارتهاوس » .

نزل هـــذا النبـــأ فى المكان الذى بـــه قلب چيمس هارتهاوس

أردفت هذه الفتاة تقول : « أطلب منك ، يا مســتر هارتهاوس ، أن ترحل من هذا المكان ، فى هذه الليلة ، وتعد بألا تعود اليه » .

قال : « هل تسمحين لى بأن أعرف اسم عدوتى ؟ »

قالت : « اسـمى ؟ »

قال : « نعـم » .

قالت : « اسمى سيسى چوب . أنا فتـــاة فقيرة . انفصلت عن أبى الذى كان عارضا فى السيرك . فأشفق على المستر جرادجرايند . فعشت مع أسرته منذ ذلك الوقت » .

انصرفت سيسى .

بعد ذلك ، أمسك المستر چيمس هارتهاوس قلما ، وكتب لأخيه فى لندن :

عزيزى چاك

انتهى كل شىء فى كوكتاون .

مللت هذا المكان .

ســــأعود .

المحب

چـيم

ثم حزم أمتعته وغادر كوكتاون فى نفس الليلة .

الباب الثانى

قرار حاسم

أصيبت مسز سپارسيت ، التى لا تكل ولا تتعب بنزلة برد حادة • فتغير صوتها وتقلص الى همس ، وانتابها عطاس مستمر • ورغم هذا ، ظلت تبحث عن المستر باوندرباى فى كافة أنحاء لندن ، حتى عثرت عليه •

أخبرته بقصتها ، من أولها الى آخرها ، ثم أغمى عليها •• فعمل المستر باوندرباى على اعادتها الى وعيها برفق • ثم صحبها الى كوكتاون بالقطار •

فلما بلغا كوكتاون ، ذهبا الى بيت ثوماس جرادجرايند ، المعروف باسم « ستون لودچ » •

اقتحم باوندرباى حجرة تـوم جرادجرايند فى وقت متأخر من الليل ، وقال له : « هذه سيدة • مسز سپارسيت، لديها ما تقوله لك » •

فقال المستر جرادجرايند : « اذا ، فأنت لم تتسلم خطابى » •

فقال المستر باوندرباى : « لا وقت للخطابات من

شخص يتكلم عن خطابات مع چوزياه باوبدرباى ، مواطن كوكتاون ، وعقله فى مثل هذه الحال التى هو عليها الآن .. يا مسز سپارسيت ، تقدمى ، يا مدام ، وتكلمى » .

ولكن اصابة مسز سپارسيت بالبرد كانت شديدة . فلم تستطع الكلام . فقال باوندرباى : « اذن . فسأتكلم أنا بدلا منها » .

قال المستر باوندرباى : « سمعت مسز سپارسيت ، صدفة ، حديثا بين ابنتك ، وصديقك المستر چيمس هارتهاوس » .

فقال المستر جرادجرايند : « هل هذا حقيقى ؟ »

فصاح باوندرباى ، يقول : « حقيقى .. وفى تلك المحادثة ...... »

فقال جرادجرايند : « لا لزوم للاعادة ، يا باوندرباى . أنا أعرف ما حدث » .

فقال المستر باوندرباى : « هل تعرف ؟ وربما تعرف أين ابنتك ، الآن ؟ »

قال المستر جرادجرايند : « لاشك فى أنها هنا الآن » .
فصاح باوندرباى ، يقول : « هنا ؟ »

قال جرادجرايند : « نعم ، لويزا هنا . ففى اللحظة



كانت اصابة مسز سپارسيت بالبرد شديدة . فلم تستطع الكلام . فقـــال باوندرباى : « اذن . فسأتكلم أنا بدلا منها » .

التى استطاعت فيها التخلص من ذلك الشخص الذى تتكلم عنه ، أسرعت الى هنا لحمايتها • ركبت القطار من بيتك الريفى ، الى كوكتاون • وجرت من هناك الى هذا البيت ، وسط العاصفة الهوجاء • جاءتنى فى حالة فظيعة • من المؤكد أنها بقيت هنا منذ تلك اللحظة • أرجوك من أجل خاطرك وخاطرها ، أن تكون أكثر هدوءا » •

ظل المستر باوندرباى ، مدة لحظة ، ينظر حواليه فى صمت ، ثم قال لمسز سپارسيت وهو غاضب :

« يسعدنا ، يا مـــدام ، أن نسمع منك أى اعتذار بسيط • ربما أمكنك أن تفسرى لنا لماذا سافرت حول هذا البلد بحكاية كلها هراء فى هراء » •

انخرطت مسز سپارسيت فى البكاء ، فصحبها المستر باوندرباى الى العربة التى كانت لا تزال واقفة أمام البيت• ونصحها بأن تذهب الى المصرف وتضع قدميها فى مـــاء ساخن وتستريح •

فقال المستر جرادجرايند : « أعتقـــد يا عـــزيزى باوندرباى ، أننى أفهم لويزا ، الآن ، أفضـل مما كنت أفهمها من قبل•أعتقد أن لها شيما ستنمو وتكبر • وأقترح، أننا ان تركناها على سجيتها الأفضل ، لفترة ما ، فسيكون هذا خيرا لسعادتنا ، جميعا » •

احمر وجه المستر باوندرباى غضبا ، وقال : « أتعنى أنك تريد الاحتفاظ بها هنا ، لوقت ما ؟ »

فقال المستر جرادجرايند : « كنت أود أن تسمح لها بأن تبقى هنا ، فى زيارة لنا » .

قال : « أستنتج من هذا ، يا توم جرادجرايند ، أنك تعتقد أن أخلاق لويزا وأخلاقى لا تتفقان . انظر الى الآن . أنا چوزياه باوندرباى ، مواطن كوكتاون .. ابنتك لا تعرف قدر زوجها . وابنتك لم تولد عقيلة . أنا الذى منحتها ذلك الشرف بزواجى اياها . لقد دهشت نساء كثيرات ، ساميات المنزلة لسلوكها .وأدهشهن كيف أننى صبرت وتحملت ذلك . وأنا نفسى ، أدهش الآن ، ولن أتحمله » .

نهض المستر جرادجرايند ، وقال : « يا باونداربى ، أعتقد أنه كلما قل كلامنا الآن فى هذه الليلة ، كان أفضل » .

فقال باوندرباى : « لا أريد أن أتعارك معك من أجل هذا الموضوع ، يا توم جرادجرايند . ولكن ، اذا لم ترجع ابنتك الى بيتها غدا ، فى الساعة الثانية عشرة ظهرا ، فسأفهم أنها تفضل البقاء بعيدا . وسأرسل ملابسها ومتعلقاتها الى هنا ، فتتولى أنت أمرها مستقبلا » .

فقال جرادجرايند : « أرجوك أن تعيد النظر فى هذا ، يا باوندرباى ، قبل أن تتخذ مثل هذا القرار » .

قال : « كلا • فأنا أقرر دائما بسرعة • كل ما أفعله ، أفعله فورا • وليس عندى ما أقوله زيادة على هـــذا •• مساء الخير ! »

ذهب المستر باوندرباى الى بيته فى كوكتاون وأوى في الفراش •

بعد الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق ، ظهرا ، فى اليوم التالى ، أمر المستر باوندرباى بحزم كل متعلقات زوجته ، بعناية ، وأرســـلها الى بيت توم جرادجرايند • وأعلن عن عرض بيته الريفى للمبيع ، وعاد ، من جديد ، الى حياة العزوبة •

الباب الثالث

المفقود

لم ينس المستر باوندرباى سرقة المصرف • فوضع ملصقة عليها صورة ستيفن بلاكپول ، وعرض مكافأة قدرها عشرون جنيها ، لكل من يعثر على ذلك الرجل ، ويقبض عليه • ففزعت راشيل عندما أبصرت هذه الملصقة ، وذهبت لمقابلة المستر باوندرباى •

فصحبها المستر باوندرباى ، لمقابلة أسرة جرادجرايند ، وأخذ معه توم الصغير •

دخل المستر باوندرباى ، ببرود ، وقال لزوجته : « يا مسز باوندرباى ، آمل فى ألا أزعجك • ولكن هذه المرأة الصغيرة ، أفضت الى بحقائق ، جعلت زيارتى ضرورية • وأود أن أعرف ما اذا كانت حقيقية أم كاذبة • وأخوك لا يريد أن يتكلم » •

قالت راشيل ، للويزا : « لقد رأيتنى ، قبل الآن ، يا سيدتى الصغيرة » •

فقالت لويزا : « نعم ، هذا صحيح » •

فقالت راشيل : « هل تتفضلين ، يا سيدتى الصغيرة ، بأن تخبرينى أين رأيتنى ، ومن كان هناك ؟ »

قالت : « ذهبت الى البيت الذى كان يقيم فيه ستيفن پلاكپول ، فى الليلة التى فصل فيها من العمل . فرأيتك هناك ، وكان أخى معى » .

فقال المستر باوندرباى : « لماذا لم تتكلم بهذا يا توم الصغير ؟ »

فأجاب توم ، وهو ينظر الى أخته بحسرة : وقال : « وعدت أختى بألا أذكر ذلك » .

أكدت لويزا قول أخيها بسرعة

فاستطردت راشيل تقول : « هل تسمحين يا سيدتى الصغيرة بأن تخبرينا بسبب ذهابك الى بيت ستيفن بلاكپول ، فى تلك الليلة ؟ »

فقالت لويزا ، وقد زادت حمرة وجهها : « أحسست بالشفقة على ذلك الرجل ، فرأيت أن أقدم له مساعدة » .

فقالت راشيل : « هل قدمت له ورقة مالية ؟

قالت : « نعم . ولكنه رفض أن يأخذها ، وأخذ فقط جنيهين ذهبيين » .

نظرت اليها راشيل وقالت : « يا سيدتى الصغيرة ،

البلدة كلها تعرف الآن ، أن ستيفن بلاكپول لص . مع أنه أعظم رجل من خيث الأمانة والاخلاص ، وأعظم رجـــل فى ...... » ثم توقفت عن الكلام وهى تنتحب » .

فقالت لويزا : « أنا آسفة جدا ، جدا » .

فقال المستر باوندرباى لراشيل : « هيا ، وأخبريهم ماذا فعلت » .

فقالت راشيل : « كتبت الى ستيفن ، بالبريد الذى سافر بعد ظهر اليوم » .

خرج المستر باوندرباى مع توم ، الذى بدا شاحب اللون . فلما انصرفا ، سألت سيسى راشـــيل عن عنوان بيتها ، ووعدتها بأن تزورها لتعرف ان كانت هناك أخبار من ستيفن .

وبعد أن انصرفت راشيل ، قال المستر جرادجرايند لابنته لويزا : « هل تعتقدين أن ذلك الرجل برىء ؟ » .

قالت : « نعم ، أعتقد هذا الآن » .

أخذ المستر جرادجرايند يفكر ، فقال لنفسه : « اننى لأسأل نفسى عمـــا اذا كان اللص الحقيقى يعرف هـــذه الاتهامات . أين هو ؟ ومن هو ؟ »

بدأ لون المستر جرادجرايند يقتتم أكثر من ذى قبل ،

ويبدو أكبر سنا . فذهبت اليه لويزا بسرعة ، وجلست الى جانبه . وبمحض الصدفة ، التقت عيناها بعينى سيسى فى تلك اللحظة . فاحمر وجه سيسى ، ووضعت لويزا اصبعها على شفتيها .

مر اليومان ، ولم يحضر ستيفن بلاكپول ، وفى اليوم الرابع ، ذهبت راشيل الى المصرف ، وأطلعت المستر باوندرباى على الخطاب الذى تسلمته من ستيفن ، وعليه عنوانه فى مصنع على بعد تسعين كيلو مترا .

بعثت رسل الى ذلك المكان ، ولكنهم عادوا وحدهم .. تسلم ستيفن بلاكپول خطاب راشيل ، فسافر على الفور . ولكن ما من انسان سمع عنه بعد ذلك .

الباب الرابع

عثر عليه

مر الوقت ، ولم يظهر ستيفن بلاكپول • فأين يوجد ذلك الرجل ؟ ولماذا لم يرجع ؟

أخذت سيسى تزور راشيل كل يوم لتعرف ما اذا كانت هناك أخبار •

وذات يوم ، كانت سيسى وراشيل تسيران فى الشارع الذى به منزل المستر باوندرباى • فاذا بعربة تأتى وتقف أمام الباب ، فنزلت منها مسز سپارسيت تجر خلفها امرأة عجوزا •

صاحت مسز سپارسيت ، تقول : « اتركوها • لا أحد يلمسها • أنها تختص بى » •

سحبت مسز سپارسيت ، هذه المرأة العجوز الى بيت المستر باوندرباى • وبدافع الفضول ، تبعتهما راشيل وسيسى ، وعدد من الناس كانوا فى الشارع • فدخلوا جميعا الى حجرة مائدة المستر باوندرباى الكبيرة ، ظنا منهم أنه لابد لهذه السيدة علاقة بسرقة المصرف •

فقالت مسز سپارسيت : « نادوا المستر باوندرباى » .
ثم تكلمت مع راشيل وقالت لها : « يا سيدتى الصغيرة ، أنت تعرفين من تكون هذه المرأة العجوز » .

فقالت راشيل : « سبق أن رأيتها . انها مسز پجلر » .
غطت مسز پجلر وجهها ، وتوسلت الى مسز سپارسيت أن تدعها تنصرف .

عندئذ ظهر المستر باوندرباى بصحبة المستر جرادجرايند ، وتوم الصغير ، الذى كان يتحدث معه فى الطابق العلوى . فدهش المستر باوندرباى لرؤية هذا الجمع فى غرفة مائدته .

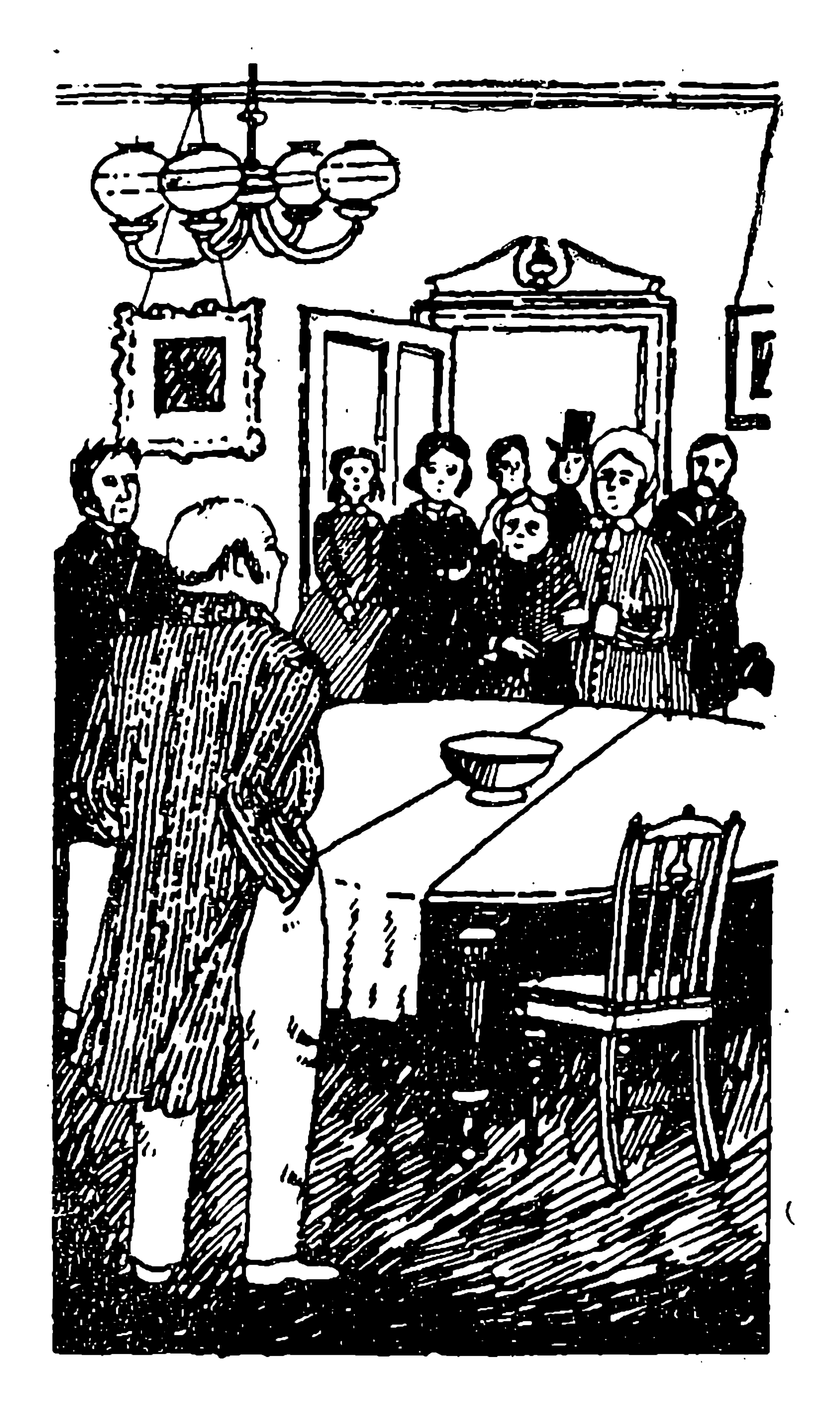
نظر المستر باوندرباى الى مسز سپارسيت ، وقال : « ما الخطب الآن ؟ لماذا كل هؤلاء ، يا مسز سپارسيت ، يا مدام ؟ »

قالت : « يا سيدى ! وجدت شخصا ، أردت أنت بلهفة ، أن تراه » .

ما ان وقعت عينا المستر باوندرباى على مسز پجلر ، حتى احمر وجهه بشدة .

صاح المستر باوندرباى، يقول :« يا مسز سپارسيت.. كيف تتجاسرين على التدخل فى شئونى العائلية ؟ »

ارتعدت مسز پجلر ، وقالت : « يا عزيزى چوزياه ..



عندئذ ظهـر المســتر باوندرباى ودهش
لرؤية هذا الجمع فى غرفة مائدته .

يا ولدى المحبوب . هذا خطئى أنا . قلت لهذه السيدة انك تتوق الى رؤيتى . كنت أعيش دائما فى هدوء ، وفى سرية . يا ابنى العزيز چوزياه ، لم أقل أبدا اننى أمك . بل كنت أعجب بك من بعيد ، وأجىء الى هذه البلدة بين آونة وأخرى كى أحظى بنظرة سريعة اليك دون أن يرانى ، أو يعرفنى أى انسان » .

أخذ المستر باوندرباى يذرع أرض الحجرة جيئة وذهابا ، وقد وضع يديه فى جيوبه ، والغيظ يكاد يقتله ، فقال المستر جرادجرايند لتلك السيدة العجوز : « يدهشنى يا مدام ، أن تقولى ان المستر باوندرباى ابنك . لقد عاملته بقسوة وهو صغير ، وهجرته » .

فصاحت مسز پجلر تقول : « هجرت ابنى چوزياه ؟ كلا ، كلا . لم أهجره ، وانما أعطيته تعليما طيبا . مات أبوه المحبوب ، وابنى هذا فى الثامنة من عمره . فاعتنيت به حتى صار رئيسا طيبا ، وتاجرا طيبا » .

فلما سمع الناس ، الذين جاءوا من الشارع ، كلامها هذا ، أصدروا أصوات العطف على العجوز مسز پجلر . لقد ظل المستر باوندرباى يخدع كل انسان بالقصص التى رواها عن طفولته الصعبة ، وبأنه أهمل فى حداثة سنه وكون نفسه بنفسه .

بقى المستر باوندرباى يسير فى أرض الحجرة ذهابا وأيابا ، وأشتدت حمرة وجهه أكثر فأكثر ، ثم توقف ، وقال:

« لا أعرف ، بالضـــبط ، كيف جاءنى السرور لهذه الصحبة الحاضرة • ولكن تدخل شخص ما فى شـــئونى الخاصة ، فأزعجنى اذ أمقت هذا التدخل • مساء الخير ! » ثم فتح الباب على مصراعيه ليخرج الناس •

البـاب الخامس

ضـوء النجم

كان يوم الأحد التالى يوما مشرقا من أيام الخريف ، جوه صحو وبارد • وكانت راشيل وسيسى قد اتفقتا على أن تخرجا فى نزهة على الأقدام فى الريف • فركبتا القطار أولا للخروج من تلك البلدة كثيرة الدخان •

نزلت هاتان الفتاتان من القطار ، وأخذتا تسيران خلال الحارات والممرات، تتمتعان باستنشاق الهواء العليل. وكانت بالأرض هناك حفر للفحم ، فتجنبتا السير وسـط الحشائش الطويلة ، التى قد تخفى حفر الفحم •

وبينما هما تسيران ، صاحت سيسى بغتة ، تقول لراشـيل :

« هنا قبعة فوق الحشـائش » • فاتجهتا معا نحو القبعة ، والتقطتها راشيل بسرعة ، وما ان ألقت عليها نظرة حتى ارتعدت فرائصها من رأسها الى قدميها ، اذ قرأت بداخل تلك القبعة ، اسم ستيفن بلاكپول • لابد أن بقيت هذه القبعة فوق الحشائش بضعة أيام ، اذ بللها المطر

والندى . فهمست سيسى تقول : « سأسير وحدى مسافة قصيرة » .

ما ان همت سيسى بالتقـــدم خطوة واحدة ، حتى صرخت راشيل وأمسكتها بكلتا ذراعيها . فأمامهما ، وتحت أقدامهما مباشرة ، حافة حفرة واســـعة تخفيها الحشائش الكثيفة . فقفزتا الى الخلف ، فى وقت واحـــد ، ووقعتا على ركابهما .

صاحت راشيل تقول : « واربى الرحيم ! انه فى أسفل هذه الحفرة . أسفلها » .

فقالت سيسى : « يا راشيل ، قد يكون ستيفن حيا » . وذهبت الى حافة الحفرة ، ونادت بأعلى صوتها . ولكن ، ما من صوت رد عليها .

سارت الفتاتان ، بعد ذلك ، فى جهتين مختلفتين بحثا عن نجدة . وأخذت سيسى تجرى من مكان الى آخر ، حتى وجدت اثنين من عمال السكة الحديدية ، فأخبرتهما بخبرها ، فذهبا معها ، وجمعا رجالا آخرين . وجاء طبيب من كوكتاون ومعه أناس آخرون .

أدليت شمعة متقدة فى تلك الحفرة ، فى الســـاعة الخامسة مساء لتجربة الهواء الذى بداخل الحفرة ومعرفة ما اذا كان صالحا للنفس . ولمـــا أخرجت الشـــمعة كانت

لا تزال مشتعلة . فربط دلو بحبل ، وأنزل رجلان الى قاع الحفـرة .

عاد أحد هذين الرجلين ، فعلا صياح الناس يقولون : « أهو حى أم ميت ؟ » فلما أخبرهم بأنه حى ، علت صيحة فرحة عظمى شكرا لله ، وترقرت الدموع فى عدة عيون .

أردف الرجل الذى خرج من الحفرة ، يقول : « ولكنه مصاب بفظاعة . أين الطبيب ؟ »

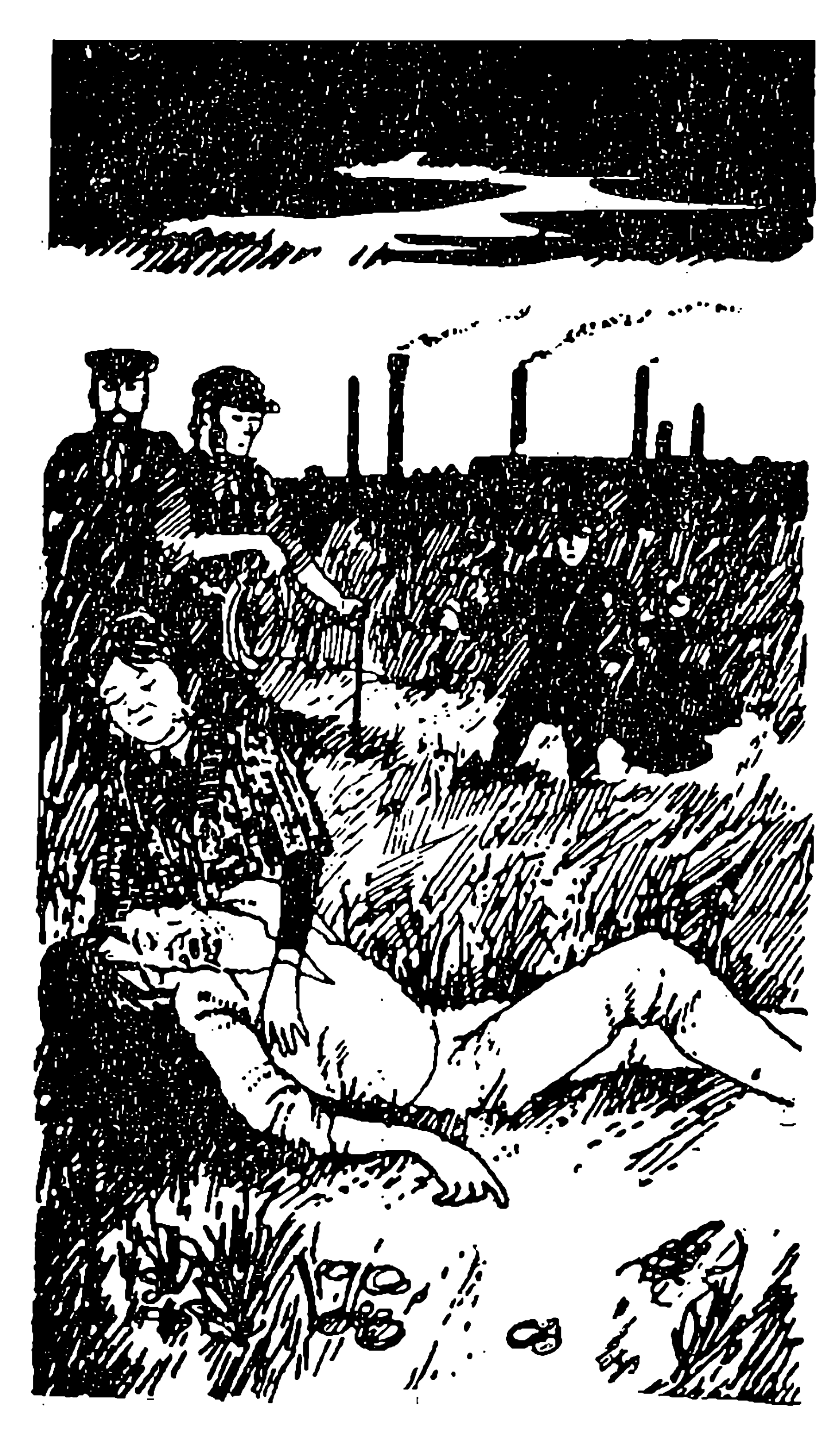
كان ستيفن يحاول عبور تلك المنطقة الخطرة بعد أن هبط الظلام . وكان يسرع الخطو ليعــود الى كوكتاون لينقذ سمعته .

وأخيرا ، أخرج ستيفن من الحفرة ضــعيفا جدا . فأرقدوه على الأرض ، وذهبت اليه راشيل وقالت له :

« انك لتتألم ألما عظيما ، الآن ، يا عزيزى ستيفن ».

قال : « كنت أتألم من قبل . أما الآن ، فلا أشــعر بأى ألم . الأمر كما سبق أن قلت من قبل : هناك الكثير من سوء التفاهم فى هذه الحياة . ولكن انظرى الى فوق ، يا راشــيل » .

تتبعت راشيل عينيه ، فرأته يحدق النظر الى نجم ساطع ، وقال : « أضاء لى هذا النجم عنــدما كنت أتألم وأشعر بالتعب . أضاء فى داخل عقلى . فنظرت اليه ،



وأخيرا ، أخرج ستيفن من الحفرة ضعيفا جدا • فارقدوه على الأرض وذهبت اليه راشيل •

وفكرت فيك ، يا راشيل • وانني لأصلى لله قبل موتى ، طالبا منه ، أن ينضم الناس بعضهم الى بعض ، أكثر مما هم عليه الآن ، ويكون هناك حسن تفاهم بين كافة الأنام • لا تتركى يدى يا راشيل ، يا فتاتى المحبوبة » •

أقبل المستر جرادجرايند ، وهو وابنته لويزا ، فقال له ستيفن :

« أنقذ اسمى ، يا سيدى ، واجعله حسنا لدى كل الناس • أترك هذا لك » •

ارتبك المستر جرادجرايند ، وقال : « كيف ؟ »

فأجاب ستيفن يقول : « يا سيدى ، سيخبرك ابنك كيف » •

استعد الناس لنقل ستيفن الى البلدة ، وسارت راشيل الى جانبه • ولكن سرعان ما انقلب هذا الموكب الى جنازة •• أوضح النجم لستيفن بلاكپول ، طريقه الى مثواه الأخير •

الباب السادس

مطاردة الكلب

وقف توم الصغير بين الجموع المحتشدة حول الحفرة العتيقة ، فلما سمعت سيسى ما قاله ستيفن للمستر جرادجرايند ، ذهبت فى هدوء الى توم وتحدثت اليه بعض الوقت . فأصغى توم الى كلامها ، واختفى بسرعة .

فى اليوم التالى ، حاول المستر جرادجرايند العثور على ابنه ، ولكن دون جدوى . فقال لابنته لويزا :

« هل تظنين ، يا لويزا ، أن أخاك التعيس خطط لهذه السرقة عندما ذهب معك الى بيت بلاكپول ؟ »

قالت : « أخشى أن يكون الأمر هكذا ، يا أبى . أعرف أنه كان بحاجة ماسة الى نقود ، وأنه أنفق مبالغ كبيرة » .

فقال الأب : « وهل تكلم مع ستيفن بلاكپول ، على انفراد ؟ »

« نعم ، أظنه طلب منه أن ينتظره خارج المصرف ليلتين أو ثلاث ليال ، قبل أن يغادر كوكتاون » .

فقال المسترجرادجرايند : « اذن ، فالأمر واضح جـدا .. واضح كل الوضـــوح » . ثم غطى وجهه بيديه لبضع لحظات ، واستطرد يقول : « وكيف يمكن انقاذ توم من العقاب ، الآن ؟ فبعد بضع ســاعات ، يجب أن أعلن الحقيقة » .

فقالت لويزا : « ما عليك ، يا أبى ، اذ دبرت سيسى الأمــر » .

رفع المستر جرادجرايند عينيه الى حيث تقف سيسى ، وقال لها : « انه أنت دائما ، يا طفلتى » .

فقالت سيسى : « فكرت فى سيرك أبى القديم . لم أنس أين يعمل فى مثل هذا الوقت من السنة ، وكنت قـد قرأت عنه فى احدى الصحف منذ مدة قـــريبة فحسب . فأخبرت توم بأن يذهب الى المستر سليرى ويطلب منه أن يخفيه عنده ، الى أن أذهب اليه » .

فصاح المستر جرادجرايند يقول : « شكرا للسماء ! بوسعنا ارساله الى الخارج » .

تبعد البلدة التى أرشدت سيسى توم اليها ، مسيرة ثلاث ساعات من ليفربول Liverpool ويمكن ارساله من تلك الميناء الى أى مكان فى العالم .

سارت سيسى ولويزا طول الليل الى تلك البــلدة ،

بينما ذهب المستر جرادجرايند من طريق آخر . وأخيرا وصلتا الى سيرك سليرى . فاستقبلهما المستر سليرى بترحاب عظـيم .

فقالت لويزا : « سرعان ما سيكون أبى هنا . هل أخى فى أمان ؟ »

ابتسم المستر سليرى وقال : « فى أمان تام . انظرى الى حلبة السيرك . انه أحد المهرجين الواقفين فيها » .

من من أحد يستطيع أن يقول أى المهرجين هو توم .

نظر المستر سـليرى الى لويزا ، وقال : « أشـــفق والدك على ميسيليا چوب ، وعلى هذا أرى لزاما على أن أقف الى جانبه . وفيما بعد ، عندما يصل أبوك ، سيجد أخاك متـخفيا تماما » .

عندما جاء المستر جرادجرايند ، فيما بعد ، قابله توم وهو فى ثياب المهرج .

فقال له أبوه : « كيف حدثت السرقة ، يا توم ؟ »

قال : « فتحت الخزانة عنوة ، فى تلك الليـــلة . وتركت الباب مقفلا نصف اقفال ، قبل أن أنصرف . وقد أعددت المفتاح المصطنع قبل ذلك بمدة طويلة . ورميته فى الصباح ، فى الشارع قريبا من المصرف ، حتى يظن أنه استعمل . لم آخذ النقـود كلها دفعة واحـــدة . بل كنت

أتظاهر بأننى أودع رصيدى فى الخزانة فى كـل ليلة . ولكننى لم أفعل . وهأنتذا تعرف كل شىء عنها » .

فقال الأب : « يجب نقلك الى ليفربول ، ومنها الى الخارج » .

تأوه الكلب الصغير ، وقال : « أظن يجب ذلك . لن أكون أكثر تعاسة فى أى مكان آخر ، من تعاستى هنا ، منذ أن تذكرت فعلتى » .

زود المستر سليرى ، توم ، بمجموعة أخـرى من الملابس ليسافر فيها . فارتدى توم زى عامل زراعى .

فقال المستر جرادجرايند : « هاك أوراقك يا توم . وستتخذ كافة الوسائل اللازمة لك . أعطنى يدك يا ولدى المسكين . وعسى أن يغفر الله لك ، مثلما غفرت أنا لك » .

بكى توم عند ذلك . ولكن عندما مدت لويزا ذراعيها نحوه ، قال : « ليس أنت . لا أريد أن تكون لى بك أية عـلاقة » .

فقالت لويزا : « ما هذا ، يا توم ؟ هل تنتهى علاقتنا على هذا النحو ، بعد كل محبتى اياك ؟ »

قال : « لم تقفى الى جانبى . ولم تهتمى بى أبدا ».

صاحت لويزا تقول له انها تحبه وسامحته . وسوف

يندم فى يوم ما على تـركه اياها هكذا . وسـتسره آخـر كلماتها ، وهو على مسافة بعيدة .

غير أنه عندما ذهبوا ليستقلوا العربة الى المحطة ، وقف بيتزر فى طريق المستر جرادجرايند وسيسى، ومنعهما التقدم ، فوقفا .

قال بيتزر : « يؤسفنى أن أمنع خطتكم . فلن أسمح لنفسى بأن يهزمنى عارضو السيرك . لابد أن أقبض على توم الصغير . يجب ألا يقوده عارضو السيرك بعيدا .. ها هو يرتدى ثياب عامل بمزرعة . لابد أن أقبض عليه » .

أمسك بيتزر ، توم من ياقة قميصه .

الباب السابع

فلسفة

عاد الجميع الى فسطاط السيرك ٠

فقال المستر جرادجرايند مكتئبا وحزينا :

« هل لك قلب ، يا بيتزر ؟ »

فأجاب بيتزر يقول : « لا يعيش أى انسان بدون قلب » ٠

فقال المستر جرادجرايند : « اذا ، فما الدافع الذى يجعلك تمنع هروب هذا الشاب ؟ انظر الى أخته هذه ، واعطف علينا » ٠

فقال بيتزر : « يا سيدى ، سأصحب توم الصغير الى كوكتاون ، وأسلمه الى المستر باوندرباى ٠ ومن المؤكد أن هذا الأخير ، سيعطينى وظيفة توم ٠ وهذه ترقية لى » ٠

وقفت لويزا وسيسى تبكيان ٠

لما سمع المستر سليرى كل ما دار بين المستر جرادجرايند ، وبيتزر من حديث ، فتح فاه ، وثبت عينه

المتحركة على بيتزر ، وقال :

« يا مستر جرادجرايند ، لم أعرف أن ابنك سرق مصرفا. هذه مسألة بالغة الخطورة . ولذلك فأنا أوافق هذا الشاب ، الآن . وسأنقل ابنك وهذا الشاب ، فى عربتى الى المحطة. ولا يمكننى أن أفعل أكثر من هذا » .

ولكنهم عندما خرجوا مرة ثانية ، همس المستر سليرى يقول لسيسى : « بما أن المستر جرادجرايند ، وقف الى جانبك ،فسأقف أنا الى جانبه.هذه ليلة حالكة الظلام. عندى حصان يفعل كل شىء ما عدا الكلام . وعندى مهر أصغر منه يسير بسرعة أربعة وعشرين كيلو مترا فى الساعة. وعندى كلب يمكنه أن يحتفظ بأى انسان فى مكانه لمدة أربع وعشرين ساعة ولا يدعه يفلت منه . فأخبرى المستر توم الصغير بهذا : عندما يرى الحصان الذى يجر عربتنا ، يبدأ يرقص ، يجب عليه أن يتطلع الى الطريق حتى يرى حصانا أصغر ، يجر عربة أخرى . فلما تقترب منه هذه العربة الأخيرة الصغيرة ، عليه أن يقفز من عربتنا ويركب العربة الصغيرة ، فتنقله بسرعة الى ليفربول . وعند ذلك لن يسمح كلبى لموظف البنك هذا بأن يتحرك من مكانه مسافة سنتيمتر واحد . ولن يتحرك حصانى من المكان الذى بدأ يرقص فيه .. أمرعى » .

بعد عشر دقائق ، كان حصان المستر سليرى وعربته

جاهزين . فركب بيتزر وتوم هذه العربة ، والكلب ينبح حولها . فأشار المستر سليرى للكلب بعينه لكى يجعل بيتزر هدفه الخاص . وسرعان ما انطلقت العـــربة بعد أن خيم الظلام بدياجيره . فبدءوا رحلتهم ، وثبت الكلب عينه على بيتزر ، وقبع الى جانب العجلة التى بجانب هذا الشاب . كان ذلك الحيوان الماهر المدرب ، على استعداد للهجوم على بيتزر ان بدرت من هذا الأخير أية بادرة تنبىء عن محاولته النزول من العربة .

جلست سيسى ولويزا مع المســتر جرادجرايند فى الفندق الذى نزلوا به فى تلك البلدة ، وظلوا فيه طـــول الليل . وفى الساعة الخامســة من الصباح التالى ، ظهر المستر سليرى وكلبه ، مرة ثانية ، مبتهجين .

فقال المستر سليرى : « كل شىء على خير ما يرام ، يا مستر جرادجرايند . لابد أن يكـــون ابنك على ظهـر السفينة الآن . أخذه موظفى المستر تشايلدرز Childers الى السفينة بعد ساعة ونصف من مغادرتنا هذا المكان فى الليلة الماضية .. طفق الحصان يرقص حتى كاد يموت . فلما قلت له الكلمة ، نام . وعندما حاول ذلك الشاب بيتزر النزول من العربة ، تعلق الكلب بياقة سترته ، فذعر بيتزر وانتفض ، واضطر الى البقـــاء حيث هو ، الى أن أدرت رأس الحصان ، ورجعنا الى هنا فى هذا الصباح » .

شكره المستر جرادجرايند ، من كل قلبه ، وعرض عليه أن يعطيه مكافأة مالية .

فقال المستر سليرى : « لا أريد أية نقود ، أنا نفسى، يا مستر جرادجرايند ، ولكن المستر تشايلدرز ذو أسرة ، فان أعطيته ورقة مالية بخمسة جنيهات ، رحب بها وفرح . كذلك ان رغبت فى شراء طوق للكلب ، ومجموعة أجراس للحصان ، فسأقبلها بسرور . وأنا يعجبنى أن أشرب الويسكى بالماء » .

قدم المستر جرادجرايند ، عن طيب خاطر ، كافة أمارات الشكر وعرفان الجميل هذه ، ولو أنه اعتقد أنها ضئيلة جدا بالنسبة الى تلك الخدمة الجليلة ، التى أداها له المستر سليرى وأتباعه .

فقال المستر سليرى : « اذن ، فأنا أطلب منك ، يا مستر جرادجرايند ، أن تتكلم بخير عن رجال السيرك ونسائه وحيواناته ، وبذا تقدم لنا خدمة ، أكثر مما نستحق .

صحب المستر سليرى ، المستر جرادجرايند ، الى حجرة أخرى ليفضى اليه بحديث سرى عن والد سيسى . فأخبره بأنه يعتقد أن والد سيسى قد مات ، لأن كلبه العجوز ، رجع متعبا من وعثاء السفر ، ومريضا ، ثم

ما لبث أن مات • وفى اعتقاده ، أن الكلب جاء من مسافة بعيدة ليعرفهم بأن صاحبه فارق الدنيا •

قال المستر سليرى : « يا مستر جرادجرايند قررنا ألا نكتب الى سيسى ، وألا نخبرها بهذا • فنحن لا نعرف بصفة قاطعة ما اذا كان أبوها قد تحسر فى وحدته لأنه تركها ولم يأخذها معه • الواقع أننا لا نعرف ذلك ، ولن نعرفه • ولكن الأرجح ، أنه مات •

نظر المستر سليرى الى قاع قدح الويسكى ، وقال : « يبدو أنه يمثل شيئين للمرء ، أليس كذلك ؟ الأول : أن هناك محبة متبادلة ، فى العالم ، ليست كلها منفعة شخصية • والثانى : أن لكل انسان طريقته الخاصة فى الحساب أو عدم الحساب » •

شرب المستر سليرى كل ما فى قدحه من الويسكى ، وطلب من السيدتين أن تدخلا •

لما دخلت سيسى ولويزا ، ودع المستر سليرى الجميع • وآخر ملاحظة أبداها للمستر جرادجرايند هى : « صافحنى ، يا سيدى ! ولا تشمئز منا ، نحن متجولى السيرك المساكين • فلا بد للناس من التسلية لا يمكنهم أن يتعلموا أو يعملوا باستمرار • فلم يخلقوا لذلك • لابد لكم منا ، يا سيدى ! فأنتم بحاجة الينا » •



شرب المستر سليرى ما فى قدحه من الويسكى ٠

الباب الثامن

الخاتمة

غضب المستر باوندرباى ، غضبا شديدا ، من مسز سپارسيت ، من جراء اكتشافها مسز پجلر • فلما ذهب الى حجرة المائدة ليتناول طعام الغداء ، وجد مسز سپارسيت جالسة الى جانب الوطيس • فتظاهرت بأنها حزينة جدا •

فسألها المستر باوندرباى ، بطريقة مقتضبة جـدا وبهلجة فى غاية الفظاظة ، بقوله : « ما الخطب الآن ، يا مدام ؟ »

قالت : « أرجوك ، يا سيدى ألا تقضم أنفى » •

فقال مكررا قولها : « أقضم أنفك ؟ أنفك ؟ » يقصد أن أنفها طويل جدا ، فلا يمكن قضمه •

قالت : « يا سيدى المستر باوندرباى ! هل ضايقك أى شىء ، فى هذا الصباح ؟ »

قال : « نعم ، يا مدام » •

قالت : « هل لى أن أسأل ، يا سيدى ، عما اذا كنت أنا السبب اللعين فى خروجك هذا عن طورك ؟ »

قال : « سأخبرك ، الآن . ما أغضبنى ، يا مدام ، ، وهو أن تلعب بى امرأة . لن أسمح لأية امرأة بأن تضايق وتزعج رجلا فى مركزى . لن أتساهل فى هذا الأمر .

رفعت مسز سپارسيت حاجبيها ، وقالت : « يتضح ، يا سيدى ، أننى أقف فى طـريقك الآن . ســـأذهب الى حجـرتى » .

فقال المستر باوندرباى ، بلهجة جافة : « اسمحى لى بأن أفتح لك الباب ، يا مدام » .

قالت : « شـــكرا ، يا سيدى ! بوســـعى أن أفتحه لنفسى » .

قال : « من الخير أن تسمحى لى ، يا مدام ، بأن انتهز هذه الفرصة ، فأقول لك كلمة قبــل أن تنصرفى .. لا أظن ، يا مسز سپارسيت ، يا مدام ، أن لك مكانا فى بيتى . لا يحق لامرأة ، فى مثل رجاحة عقلك ونبوغك ، أن تتدخل فى شئون غيرها » .

نظرت مسز سپارسيت الى المستر باوندرباى ، نظرة غضــب شــديد ، وقالت فى أدب : « أهـــذا حقيقى ، يا ســيدى ؟ »

قال : « كنت أفكر فى هذا الأمر . أشعر بأن بيتا آخر

يمكنه أن يضم سيدة بمثل قواك • مثل بيت قريبتك البليدى سكادچرز Scadgers ألا تظنين أن بوسعك أن تجدى عملا هناك ، يا مدام ، لتتدخلى فيه ؟ »

فقالت مسز سپارسيت : « لم يحدث هذا من قبل ، اطلاقا ، يا سيدى • ولكن بما أنك تذكره الآن ، فينبغى لى أن أعتبره محتملا جدا » •

فقال المستر باوندرباى ، وقد وضع مظروفا به شيك ، فى سلة أدوات الخياطة الصغيرة ، الخاصة بها : « افرضى ، أنك تحاولين ، يا مدام » •

صمت المستر باوندرباى برهة ، ثم استطرد يقول : « يمكنك اختيار الوقت الذى ترحلين فيـــه ، يا مدام • ولكن ، ربما كان من الأوفق لسيدة فى مثل قواك العقلية ، أن تأكل وجباتها بنفسها دون أن يزعجها أى انسان •

أقفل المستر باوندرباى الباب ، ووقف أمام الوطيس يفكر فى المستقبل •



الى كم مستقبل ؟ هل يرى نفسه يقـــدم بيتزر الى الأغراب ، على أنه شاب يرتقى ؟ هل يرى نفسه يكتب وصيته الأخيرة السخيفة والمعقدة ؟ هل عرف أنه سيموت بعد خمس

سنوات بالسكتة القلبية فى أحد شوارع كوكتاون ؟ نعم ، كل هذا سيحدث ٠

وها هو المستر جرادجرايند ، فى نفس اليوم ، وفى نفس الساعة ، جالس فى حجرته يفكر : كم من مستقبل رأى ؟ هل رأى نفسه رجلا عجوزا ضعيفا ، أشيب الشعر ، ما عاد عضوا هاما فى البرلمان فى لندن ؟

سيترك هذا الرجل نظرياته الصعبة ، ويصير أكثر لينا ٠ ستضيع حقائقه وأرقامه ، فى الايمان والأمل والمحبة٠

وها هى لويزا ، فى ليلة ذلك اليوم نفسه ، تلاحظ النار فى الوطيس ، كما اعتادت أن تلاحظها منذ سنوات طوال ، فى أيام طفولتها ٠ الا أن وجهها صار أكثر رقة ، ولم تعد متكبرة مثلما كانت ٠ يمكنها أن ترى الملصقات الآن ، موقعا عليها باسم والدها ، تعلن براءة ستيفن بلاكپول النساج ، وادانة ابنه ، هو نفسه ، أخيها ٠ استطاعت لويزا أن ترى هذه الأشياء بوضوح ٠ ولكن ، كم من مستقبل ؟

مرضت عاملة ، اسمها راشيل ، لمدة طويلة ولكنها ، حلوة الطباع وهادئة ومرحة ، وهى وحدها التى تعطف بعد ذلك ، انضمت الى عاملات كوكتاون ٠ انها امرأة ذات جمال مفكر ٠ كانت ترتدى ثياب الحداد باستمرار ، ولكنها

حلوة الطباع وهادئة ومرحة ، وهى وحدها التى تعطف على سيدة فقيرة عجوز ، هى زوجة ستيفن بلاكپول ، التى تظهر من آن الى آخر ، وقد عبت الكثير من الخمر • فهل رأت لويزا ذلك ؟ لابد من حدوث أمثال هذه الأمور •

صارت راشيل نفسها زوجة ، وأم أطفال ترعى أولادها بمحبة • فهل رأت لويزا ذلك أيضـــا ؟ لن يكون لها مثل ذلك الشىء •

ولكن أطفال سيسى السعيدة ، السعداء يحبون أمهم حبا جما ويحبـــون لويزا ، التى تحـــب طبيعة الأطفال وتتفهمهم وتساعدهم على أن يشبوا ، ليس كالآلات ، وانما كمخلوقات بشرية مفكرة •• هل رأت لويزا أمثال هـــذه الأشياء ؟ ستحدث أمثال هذه الأشياء •



محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

(يسعدنى أن أقدم للقارىء العزيز كتابى هذا ورقمه ١٣٨ ولا يسعنى الا تقديم الشكر لله العلى القدير) .



رقم الايداع ٢٠٠٤ / ١٩٩٣